الأبعاد المجهولة 3

من مذكرات شاب كويتي...

عبدالوهاب السيد الرفاعي



الطبعة التاسعة

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الأبعاد المجهولة (3)

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

مقدمة هـامة..

نحن في عام 2010.. بداية الاحتقان السياسي في (الكويت).. الصحف ووسائل الإعلام تشتم بعضها طوال الوقت.. والأمور متجهة إلى الغليان والتصعيد.. إنه زمن بغيض تغير فيه وطني كثيرا.. إذ نمَت فيه فطريات التعصب بكل أنواعه.. وأصبح النفاق والكراهية من عاداته وتقاليده!!!.. لهذا أشعر بالغربة والاكتئاب وأحاول الابتعاد دوما عن الواقع المؤلم.. فعقلي يعيش في حقبة الخمسينات والستينات.. هذه صورة لـ (عبد الحليم حافظ) تزين غرفتي.. وأخرى لـ (أم كلثوم).. اللوحة الخلفية لجهاز الكمبيوتر تحوي صورة لمسرحية قديمة للرائع (عبد الحسين عبدالرضا).. حقا إنني هارب من الزمن -إن صح التعبير- وأريد أن أبقى في الماضي.. يقولون لي ألاّ أحزن لأن قصة حياتي قد تنتهي نهاية سعيدة.. فأقول لهم: المشكلة ليست في نهاية قصتي.. بل في قصتي نفسها.. فأنا إنسان بسيط جدا لا أتعدى حدودي.. لكن الحدود هي التي تتعداني دوما.

المعذرة.. نسيت أن أعرفكم بنفسي.. اسمي (خالد سليمان الـ....).. عمري 25 سنة.. ربما يتذكرني بعضكم.. فقد نشرت مذكراتي لأول مرة عام 2003 تحت اسم (الأبعاد المجهولة) عندما كنت في الثامنة عشرة من العمر حسبما أتذكر.. ونشرت بعدها جزءا آخر حمل اسم (الأبعاد المجهولة 2).. كما أن لي قصة في كتاب (في الجانب المظلم).. وقصة أخرى في كتاب (رسائل الخوف) عام 2009.. إنني أسرد مذكراتي بين الحين والآخر كما ترون كوني أعشق القلم وأراه صديقا حميما لي.

لا يوجد الكثير لأقوله عن نفسي.. إذ يعرف كل من قرأوا مذكراتي نوع التجارب والقصص الكابوسية التي مررت بها في حياتي القصيرة.. والتي لم يصدّق الكثيرون أنها حدثت في (الكويت)!!!.. حيث غصت في عالم ما وراء الطبيعة منذ فترة المراهقة تقريبا ورأيت من الأهوال ما لم يره إنسان رغم عمري الصغير.. فباتت تجاربي مزيجا غير مألوف من الرعب والغموض وكل ما يجعلك تظنني كاذبا أو مجنونا!!!.. الأمر الذي أشعرني بالاختلاف عن باقي الناس.. والشعور بالاختلاف هو بوابة الوحدة!!!.. فأنا غير اجتماعي بالمرة.. و(يوتوبي) جدا في مسألة اختيار صديق.. خاصة وأنني على يقين أن كل مآسينا تقريبا تنبع من صلاتنا بالآخرين.. ثم لماذا أحاول الاندماج مع المجتمع إذا كان مقدّرا لي أن أكون وحيدا؟ ؟!.. عموما.. أنا لست وحيدا.. فالوحدة برفقتي طوال الوقت!!!.

ربما تكون جدتي الحبيبة (فاطمة) هي أجمل ما بحياتي.. تلك الإنسانة الطيبة الحنون التي تولت تربيتي حين توفي والداي وأنا طفل رضيع لا أفقه ما يدور حولي ([1]).. فكانت لي نعم الجدة والأم والصدر الحنون الذي طالما لجأت إليه.. حتى أنها تجعلني أتساءل أحيانا: لماذا لا يكون هناك مثلها في هذا العالم؟!.

لا زلت أعيش معها حياة هادئة بسيطة في شقة أنيقة بمنطقة (الرميثية) التي أعشقها عشقا مبرحا وأعتبرها وطني الحقيقي بعد أن عشت فيها طوال حياتي.. أعترف أنها تغيرت كثيرا عن السابق وأن شوارعها باتت تضيق علينا يوما بعد يوم.. أعترف أن أحياءها السكنية قد امتلأت بالسيارات حتى تكاد لا تجد مكانا تمشي فيه.. لكن.. هذا وطني وأنا أعشقه في كل الأحوال.

لقد تحدثت سابقا في أكثر من مناسبة عن دراستي في كلية الطب والتي حققتُ فيها النجاح عاما بعد عام وبتفوق منقطع النظير إلى أن وصلت إلى السنة السادسة وأصبحْت على أعتاب التخرج.. آملا بالاستمرار بعد ذلك والحصول على الماجستير والدكتوراه.. فأنا متفوق في دراستي إلى درجة

تثير حسد زملائي في الكلية.. وإن كنت أرى أحيانا نظرات الشفقة من بعضهم بسبب ملامحي الحزينة المكتئبة.. أعلم جيدا أنهم يطلقون علي سرّا لقب (أبو الهول) بسبب هدوئي الدائم.. وهذا لا يؤلمني أبدا.. خاصة وأن لي سمعة طيبة جدا بينهم كوني أقدّم العون للجميع متى ما طلبوا مني.. أعتقد أن الصورة التي ارتسمت في أذهان زملائي هي أن (خالد) خدوم جدا ويقدم كل مساعدة ممكنة.. لكنه يرغب أن يكون وحيدا.. فلننهل من علمه وتفوقه.. ثم نتركه وشأنه!!!.. وقد كنت راضيا تماما بهذا القانون غير المكتوب.. كما لا بد أن أذكر هنا أنني قارئ نهم.. وأن القراءة المستمرة قد صنعت مني شخصا ذكيا في الاستنتاج وربط الأمور ببعضها كما يقولون.. وهذا ليس غرورا.. بل هي الحقيقة.. وربما هذا السلاح الوحيد الذي أمتلكه والذي أخرجني من مآزق عديدة كما لاحظ كل من قرأ مذكراتي سابقا.

أما الحب فهو غائب تماما عن حياتي ومنذ سنوات.. خاصة بعد أن مررت بقصة حب رائعة في فترة مراهقتي حيث ذكرت تفاصيلها في الجزء الأول من مذكراتي.. قبل أن ينتهي كل شيء فجأة لترحل حبيبتي رغما عنها وعنّي!!!.. لكني وهبت لها قلبي رغم كل شيء.. وأقسمت أن أكون مخلصا لها إلى الأبد.. آملا أن تحدث المعجزة وتعود إلي يوما.. فلا زلت أنتظرها بعد كل هذه السنوات.. وأعتقد أنني سأنتظرها إلى يوم وفاتي.. لست قاسيا على نفسي.. إنما لا أعتقد أنني سأعثر يوما على فتاة مثلها.. لقد كانت سقف الجمال والأنوثة والرقة والحنان.. كانت فتاة الأحلام بحق.. وككل الأحلام.. لا بد أن تنتهي وترحل دون عودة!!!.

ربما تكون هناك حقيقة أخيرة نسيها البعض عني.. فأنا جبان جدا.. إنه أمر لم أعد أخجل من الاعتراف به.. إذ أخشى الظلام.. أخشى الحشرات.. أخشى المستقبل.. أترقب دوما اللحظة التي قد يهجم فيها علي مجموعة من الشبان لضربي وتدمير كل ما تبقى من شخصيتي.. وكل هذا الخوف تسبب بالمزيد من الانطواء والتقوقع في شقتي.. و.. لن أثرثر أكثر عن مشاعري وأحزاني.. فقد فعلت ذلك في عدة مناسبات سابقة.. لذا سأتحدث عن القادم.. عن تجاربي التي لم أسردها لكم بعد.. 3 قصص جديدة عشت أحداثها مؤخرا لأستكمل من خلالها مسلسل الأهوال التي أعيشها في حياتي رغم الهدوء الظاهري الذي تبدو عليه.. ولكن أرجوكم أن تتذكروا قبل كل شيء أننا في عام 2010.. والمعذرة كوني تأخرت في سرد هذا الجزء من مذكراتي الذي ظل حبيس أدراجي لفترة قبل أن أقرر نشره أخيرا.

أرجوكم أن تتذكروا أيضا نصيحتي الدائمة التي صدعت رؤوسكم بها.. فتجاربي التي ستقرؤونها تحتاج إلى هدوء.. إلى صفاء بال.. إلى ليل.. تحتاج أن تعطوها حقها من التركيز والتفرغ.. وإلا كانت هراء!!!.. والآن.. أضيئوا الأنوار.. وخذوا نفسا عميقا.. ولندخل معا للمرة الثالثة إلى تلك الأبعاد الغامضة الغريبة التي أعيشها منذ أكثر من 10 سنوات.. الأبعاد المجهولة.

(خالد سليمان ال.....).

ما وراء العقل!!!

أجلس في مقهى (ستار بكس) في منطقة (الجابرية) -حيث مقر كلية الطب -وقد خرجت للتو من آخر محاضرات اليوم.. الساعة تقترب من الثانية ظهرا وهي فترة الذروة في شوارعنا الحبيبة.. لهذا أقضي بعض الوقت في المقهى إلى أن تخف حدة الازدحام قليلا حتى أعود إلى شقتي دون أن تحترق أعصابي من الاختناق المروري.. لا أعرف لماذا يطلقون على تلك الساعة اسم (وقت الذروة) إذا لم يكن هناك شيء يتحرك في الشارع أصلا!!!.

أستمتع بشرب الموكا المثلجة التي تعمل كوحدة التكييف داخل الجسم.. خاصة وأن فصل الصيف لا زال يصر على البقاء بعناد واضح في تلك الفترة من بدايات شهر سبتمبر وفي الأيام الأولى من العام الدراسي الجديد في الكلية.. أرتدي السماعتين الصغيرتين اللتين لا يراني زملائي الطلبة دونهما تقريبا إلا في أوقات المحاضرات بالطبع.. كنت أستمع حينها إلى أغنية (بتلوموني ليه) القريبة جدا إلى قلبي للرائع (عبد الحليم حافظ).. منفصلا تماما عن الواقع وعن الزحمة التي تحيط بي في المقهى.. أمسك بأحد الكتب محاولا استرجاع بعض المعلومات التي درستها في الكلية وكأنني في سباق مع الزمن.. أريد أن أتعلم كل شيء.. أريد أن أعرف كل شيء.. لا أريد أن تفوتني معلومة واحدة.. وهذا ما يجعلني قارئاً وباحثاً نهماً كوني أرى دوما أن الأمان لا يكمن بالمال.. بل بزيادة قدراتك ومهاراتك الحياتية.

المهم أنني وأثناء انهماكي في قراءة الكتاب.. شعرت أن هناك شيئا ليس على ما يرام.. إنها العين الثالثة التي يتحدث عنها الخبراء النفسيون.. أو ما نسميها نحن ب. (الحاسة السادسة).. حين تشعر فجأة أن أحدهم يحدق بك.. فتلتفت إليه وتجده يحدق بك بالفعل.. لذا فقد التفت بصورة مفاجئة لأجد أن هناك فتاة ما تحدق بي!!.

لم يطل الأمر سوى لحظة واحدة لأتذكر أن الفتاة في الواقع هي زميلة رأيتها أكثر من مرة في ممرات الكلية وإن كنت لم أتجاذب معها أطراف الحديث من قبل.. لأنها في سنتها الدراسية الأولى على حد علمي وأنا أسبقها ب. 5 سنوات تقريبا.. كانت تحدق بي بتوتر واضح وهي تجلس وحيدة على منضدة قريبة.. وكأنها تعيش كارثة لن تنجو من تبعاتها مهما فعلت.. أنا أدرك تلك النظرات جيدا.. فقد عشتها كثيرا.. وغالبا هي لا تبشر بالخير!!!.

عندما شعرت الفتاة أنني أحدق بها بالمقابل.. أشارت إلي بإصبعها وهي تهمس بكلمات غير مسموعة.. لكني قرأت شفاهها جيدا وهي تقول:

-هل أستطيع التحدث إليك قليلا؟!!.

أشرت لها بترحاب أن تأتي لتجلس معي بدلا من أنهض أنا لأجلس عندها.. وهو تصرف غبي لا يقوم به (الجنتلمان) عادة.. ربما هو الارتباك الذي يصاحب شخصية خجولة كشخصيتي.. وإن كنت قد تغلبت إلى حد ما على هذا الخجل مع تقدمي بالعمر وبلوغي ال. 25 عاماً.. الغريب أن الفتاة امتثلت لي ونهضت لتتجه بخطوات مترددة وتجلس على الكرسي المقابل لطاولتي.. كانت ترتدي بنطلون جينز أزرق اللون وقميصاً وردياً طويل الأكمام.. أما شعرها فكان طويلا إلى حد ما وقد تركته منسدلا على كتفيها.

نزعت السماعتين من أذني منتظرا منها أن تتحدث.. لكنها ظلت تنظر إلي بصمت وتردد

واضحين.. ثم.. قالت بصوت رقيق:

-المعذرة.. إنني أرتكب خطأ جسيما.. ربما يجب أن أتركك لوحدك!!!.

قالتها وقررت النهوض فجأة دون أن ينتبه أحد لما يحدث بسبب ازدحام المقهى بالناس.. إنها لا تفعل ذلك من باب التحايل كي أصر عليها أن تخبرني بما لديها.. بل هي مترددة خائفة بالفعل كما بدت لي!!!.. لذا شعرت بالشفقة تجاهها.. فقلت مباشرة قبل أن تبتعد:

-مهلا.. لا يمكن أن تأتي لتجلسي معي ثم تعودي أدراجك بكل بساطة.. إن كان هناك ما تودين قوله فتفضلي.. لا أرى ما يدعوك إلى التردد!!!.

تسمرت في مكانها قليلا.. ثم نظرت إلي بقلق.. قبل أن تعود بتردد لتجلس وتقول بعدها بحذر:

-المعذرة.. كنت أبحث عن شخص جدير بالثقة ليحل مشكلتي.. وعندما رأيتك.. تذكرت أنك قد تكون الشخص المناسب.. الطالب المتفوق العبقري.. والمنطوي!!!.. هذا ما يقوله عنك الجميع.

سكتت قليلا.. ثم قالت بخجل واضح:

-هل.. هل يمكنني الحصول على رقم هاتفك؟!.. فأنا لن أستطيع التحدث معك في هذا الصخب والازدحام الشديد.. سأتصل بك فيما بعد وأشرح لك كل شيء.

لم أكن بحاجة إلى ذكاء ليتجه تفكيري تلقائيا إلى تجاربي السابقة وكيف مررت بأيام سوداء بسبب استماعي للناس وثقتي بهم.. لذا شعرت بشيء من التوجس.. هل أثق بها؟!.. مستحيل.. لقد تعلمت منذ زمن ألا أثق بأحد في هذا العالم سوى جدتي.. هل أرفض التواصل معها؟!.. لكن.. قد تكون الفتاة بحاجة إلى مساعدة بالفعل.. لا يوجد إذاً سوى حل واحد.. تنحنحت بحرج.. ثم قلت بصوت مبحوح:

-هل.. هل تسمحين لي بالاطلاع على هويتك الشخصية؟!!.

كان طلبي مثيرا للدهشة بالطبع.. حتى أنها نظرت إلي بعينين متسعتين دون أن ترد.. فقلت بسرعة مبررا طلبي:

-المعذرة.. إن حياتي غريبة للغاية.. وقد مررت بتجارب لن تصدقيها أبدا لو حكيتها لك.. وهذا يحتم علي ألا أثق بأحد.. وعموما فإن الاطلاع على إثباتك الشخصي لن يضرك بشيء.. كل ما أريده في النهاية هو التحقق من هويتك فقط.. فالمرء لا يمكن أن يرتكب نفس الخطأ مرتين.. لأن في المرة الثانية لن يكون ما ارتكبه خطأ.. بل اختيار.

ظلت تنظر إلي باستغراب وكأنها تفكر بجدية أن تنهض وتترك هذا الشاب الأحمق غريب الأطوار كما يقولون عنه دوما.. لكن.. فوجئت بها تستكين وتخرج محفظتها من حقيبتها.. ثم تخرج إثباتها الشخصي وتضعه على المنضدة لأراه.. أمسكت بالهوية الشخصية ورحت أقرأ الاسم.. (أنمار).. اسم جميل!!.. حسنا.. أعرف اسمها الثلاثي الآن.. سيعرف رجال الشرطة كيف سيعثرون عليها لو ارتكبت بحقي أي جرم!!!.. تنحنحت مرة أخرى وأنا أعيد إليها هويتها لأقول مؤكدا:

- أكرر اعتذاري الشديد لطلبي الغريب هذا.. إن ما رأيته في حياتي يفوق كل كوابيسك.. صدقيني!!!.. على كل حال.. اسمي (خالد).. مرحبا بك.

أومأت برأسها إيجابا بما يوحي أنها تعرف اسمي من الكلية ربما.. ثم ظلت فترة من الزمن تنظر إلي وتفكر بعمق محاولة قول شيء ما.. وكأنها تبحث عن نقطة لتبدأ الكلام.. و:

-أتمنى أن تكون قادرا على مساعدتي يا (خالد).. إنني أمر في مشكلة معقدة للغاية ومأزق حقيقي لا أعرف له مخرجاً.. والواقع أنني لم ألجأ إليك إلا لأنني أحتاج رجلا يقف إلى جانبي.. فأنا لا أستطيع أن أخبر والدي أو أشقائي بالأمر.. لن أجرؤ على ذلك أبدا!!!.

شعرت لا إراديا ببعض التوتر.. وقلت لـ (أنمار) بجدية:

-تستطيعين الاتصال بي مساء الخميس إن أردت.. أي بعد غد.. حتى تكون النفوس هادئة كما هي العادة في العطل والإجازات.. فهل تستطيعين الانتظار لما بعد الغد؟!!.

أخذت نفسا عميقا وهي تقول:

-هذا أفضل بكل تأكيد.. سأتصل بك مساء الخميس في الحادية عشرة مساء.. ولو كنت تسهر مع أصدقائك أو أقاربك.. فيمكنني أن أتصل بك بعد عودتك مهما كان الوقت متأخرا.. سأسهر حتى....

قاطعتها بهدوء دون أن أنظر إليها:

-لا أصدقاء لدي.. ولا أقارب!!!.

نظرت إلي مستغربة.. ثم لانت ملامحها فجأة وكأنها تسترجع تحفظي وانعزالي التام في الكلية مما يوحي أن حياتي بأكملها بهذه الصورة.. فقامت بعدها بتسجيل رقم هاتفي النقال ثم نهضت وهي تلقي تحية سريعة مع الوعد بالاتصال بعد غد كما اتفقنا.

مر بعدها اليومان التاليان بهدوء شديد كما هو الحال دوما.. أشعر أحيانا أن حياتي شبيهة بالثقب الأسود الذي تجده يقبع في الفراغ بصمت.. لكنه يمتص كل ما يقترب منه بقوة ويبتلعه تماما بدوامة الزمن والنسيان.. الفارق أن الثقوب السوداء قوية للغاية.. بل هي أقوى مادة في الكون لأنها تمتص حتى الضوء.. أما أنا فمجرد جرادة ضعيفة تمتص المصائب بطريقة غريبة وتتقاذفها الرياح دوما فلا حول لها ولا قوة.

المهم أن مساء الخميس قد حان.. حيث جلست أشاهد التلفزيون مع جدتي كعادتنا بعد تناول العشاء.. قبل أن تنهض بشيء من الصعوبة بسبب آلام في ظهرها بدأت تعاني منها مؤخرا بفعل عامل السن.. لتخبرني أنها ستذهب للنوم.. نظرت إلى الساعة وإذا بها تتجاوز العاشرة مساء بقليل.. فنهضت بدوري لأغلق التلفزيون.. ثم قبلت جبينها كما أفعل دوما.. وذهبت بعدها إلى غرفتي مترقبا الاتصال من (أنمار).

جلست في غرفتي أقرأ أحد الكتب وأنا أنظر إلى الساعة بين الحين والآخر.. 10:15.. ثم 10:30 و.. 11:05 تقريبا.. قبل أن يرن هاتفي النقال أخيرا.. كانت هي بالطبع.. (أنمار).. فهاتفي النقال لا يرن إلا نادراً جداً.. تبادلنا عبارات الترحيب والمجاملة.. لتقول بطريقة توحي بخطورة الأمر:

-(خالد).. تقبل اعتذاري مرة أخرى كوني تطفلت على حياتك بهذه الصورة.. كما أشكرك كثيرا على استعدادك للاستماع لي.. وأرجوك أن تتذكر أن ما سأخبرك به هو الحقيقة.. الحقيقة فحسب مهما بدت لك غريبة.. فأنا لم أتصل بك لألهو وأعبث.. بل إنني بحاجة فعلية إلى مساعدة شخص محل ثقة.. والإنسان الصامت غالبا ما يكون محل ثقة بوجهة نظري.. فأرجوك لا تخذلني.

قلت لها ما معناه أن كلي آذان صاغية.. و:

-(خالد).. نحن نلتقي دوما في الكلية لكنا لم نتبادل الحديث من قبل.. فلا أدري إن كنت على علم بأنني طالبة في السنة الأولى.. متفوقة جدا في دراستي.. ولا أبالغ لو قلت أنني نابغة في علم البيولوجي (الأحياء).. الطريف أن علامات النبوغ تلك لم تظهر علي إلا في المرحلة الثانوية فحسب.. وبصورة فاجأت والديّ كثيرا.

قلت متفهما:

-هذا أمر طبيعي يا (أنمار).. أحيانا كثيرة يظهر النبوغ فجأة دون سبب واضح.. بل وهذا ما حدث بالضبط مع العالم العظيم (آينشتاين) حين اتهمه أساتذته يوما بالتخلف في فترة طفولته.

غمغمت بضيق وبكلمات توحي أن ما أقوله كلام مكرر تعرفه هي جيدا.. فتنحنحت بحرج.. أكره كثيرا حين أقول جملة معلبة يعرفها الناس.. كأن تخبر أحدهم أننا نعاني من الواسطة في (الكويت).. سينظر لك الجميع على أنك أحمق تكرر معلومة يعرفها حتى الأطفال.

المهم أنها أكملت بعد ذلك:

-لقد بدأت المشكلة منذ شهور قليلة بعد أن أنهيت دراستي الثانوية بنسبة مرتفعة جعلتني على ثقة تامة بأن قبولي في كلية الطب هو مسألة وقت لا أكثر.. بل وكنت واثقة أيضا أن حياتي ستتخذ المنحى الطبيعي لأي فتاة متفوقة.. النجاح الأكيد والمستمر دون شك.. ولا أبالغ لو قلت أنني كنت أحلم بالفوز بجائزة (نوبل) لأكون أول فتاة عربية تفعلها في مجال الطب.. نعم.. من حقي أن أحلم دون توقف طالما أسعى بكل جد لتحقيق أحلامي.

قلت باستغراب:

- لماذا تتحدثين عن أحلامك بصيغة الماضي؟!.. لقد التحقت بالفعل بكلية الطب كما كنت ترغبين ولا زلت طالبة متفوقة على حد قولك!!.

عند عبارتي هذه.. شعرت بشهقاتها التي بدأت ببطء شديد.. ثم راحت تتزايد.. حسنا.. من الواضح أنها تبكي.. وكأنني عزفت على أكثر أوتارها حساسية.. لا أعرف ما الذي قلته وجعلها تبكي فجأة.. لكني على كل حال احترمت بكائها كثيرا ولم أنطق بكلمة.. قبل أن تتنهد.. ثم.. صوت (بفففففففف).. مما يوحي أنها تفرغ أنفها في منديل.. لتكمل بعدها:

-لا يمكن أن أنسى تلك الليلة.. ليلة تخرجي من مرحلة الثانوية حين خرجت مع شقيقاتي للاحتفال في مطعم (تشيليز).. فجلسنا هناك نتناول العشاء في جو مرح للغاية تبادلنا فيه أطراف الحديث حول أمور كثيرة مختلفة.. قبل أن أنتبه فجأة إلى وجود شاب يجلس مع مجموعة من أصدقائه في طاولة قريبة نسبيا.. كانوا يتحدثون بمرح وصوت مرتفع كحال معظم الشباب.. أما هو.. فقد تجاهل أصدقاءه تماما وراح يحدق بي بثبات وفي عينيه نظرة هيام.. يحبني من أول نظرة؟ !!.. أنا مؤمنة تماما بالحب من أول نظرة يا (خالد).. ولا أعتقد أن لصغر سني علاقة بالأمر.. فأنا راجحة العقل.. وأستطيع أن أميز جيدا بين حب المراهقة والحب الحقيقي!!!.

بدا الاستنكار واضحا على ملامحي.. وربما لو تمكنَت من رؤية وجهي حينها لخرسَت خجلا.. في هذا السن تستطيعين التمييز بين حب المراهقة والحب من أول نظرة؟ !!.. إنك تمزحين يا عزيزتي.. لكن.. لا أعتقد أن المشكلة تكمن هنا عموما.. لذا تجاهلت تلك النقطة وظللت أستمع إليها باهتمام لتكمل قائلة:

- كان شابا في مثل عمري تقريبا كما بدا لي.. حليق الوجه.. ملامحه وسيمة إلى حد ما.. شعره

قصير مرتب ويرتدي بنطلون الجينز مع (تي شيرت) أزرق يبرز بوضوح تقسيم جسده المتناسق الذي جعله يبدو وكأنه أحد آلهة الإغريق!!!.. المهم أنه ظل يحدق بي لفترة طويلة بهيام واضح متجاهلا أصدقاءه تماما.. في البداية حاولت أن أتجاهله.. لكن.. كلما كنت أغفل عنه وأشغل نفسي بالحديث مع شقيقاتي.. ألتفت إليه وأجده يحدق بي بذات الطريقة!!!.. إلى أن نهض أحد أصدقائه فجأة وراح يلوّح بيده للجرسون كي يأتي لهم بفاتورة الحساب.. تم ذلك بسرعة والشاب لا يزال يحدق بي بثبات دون أن أعلم إن كان قد أنهى وجبته أم نسيها تماما ربما!!!.. خاصة وأن نظراته كان يشوبها بعض الحزن.. وكأنه يريدني لكنه يعلم في قرارة نفسه أنه لن ينالني أبدا!!!.. لذا فقد نهض مع أصدقائه مستسلما ليغيب عن أنظاري.

سكتت لتلتقط أنفاسها.. ثم أكملت:

-لقد ظننت حينها أنني لن أراه مرة أخرى.. لكن.. حين نهضت من مكاني -بعد رحيله بحوالي نصف ساعة -متجهة إلى دورة المياه.. وجدته متوقفا بمسافة قريبة نسبيا من هناك على أمل أن يجد الفرصة ليتمكن من الاقتراب مني والتحدث إلي كما يبدو!!!.. لا أنكر أن وجوده فاجأني كثيرا.. حتى أنني تسمرت في مكاني ولم أعرف كيف أتصرف.. فاقترب مني بتردد شديد ليقول بعينين دامعتين: ((أرجوك.. أرجوك.. كل ما أطلبه منك هو مكالمة هاتفية واحدة.. لن تضرك تلك المكالمة بشيء.. أتوسل إليك.. امنحيني تلك الفرصة.. أنا.. أنا...)).. تلعثم بشدة وهو لا يعرف كيف يتم عبارته.. كان يريد أن يخبرني بمدى حبه لي!!!.. أنا واثقة من ذلك.. (خالد).. أعترف أنني مقبولة الملامح.. لكني لست خارقة الجمال ولا يمكن أن أصيب شابا بهذا العته!!!.. لذا بدا الموقف غريبا بحق.. خاصة وأنه لم تكن لي أي تجارب عاطفية تذكر في حياتي.. سوى بضع مكالمات هاتفية عابثة مع ابن الجيران في بدايات دراستي الثانوية.

سكتت قليلا وكأنها تريد أن تعرف مدى تأثير كلامها علي.. لكني لم أقل شيئا.. بل رحت أفكر بتصرف ذلك الشاب.. إن كان قد أحبها فإن هذا ينم عن عدم نضج واضح.. وإن كان يريد خداعها.. ففي هذا غباء واضح أيضا لسذاجة خطته!!!.

المهم أن (أنمار) أردفت قائلة:

-لم أعرف كيف أتصرف.. إذ ظللت ألتفت حولي خوفا أن ينتبه إلينا الناس.. لكن.. لم يكن هناك أحد يعيرنا أي اهتمام بسبب الزحمة المعتادة في المطعم.. لذا طلبت منه برجاء ألا يسبب لي أي حرج مع شقيقاتي وأن يتركني لحالي قبل أن يلحظن تواجدي معه.. لكنه أصر هامسا برجاء شديد أن آخذ رقم هاتفه.. نظرت إليه بصمت.. عيناه.. طريقة تقربه مني.. لا يبدو لي أبدا كشاب عابث.. هل سأبدو سخيفة لو قلت أنني شعرت أن شيئا ما قد تحرك في قلبي أيضا؟ !!.. التفت حولي للمرة الأخيرة للتأكد أنني بعيدة عن أنظار شقيقاتي.. ثم.. رأيت أن لا ضرر هناك من أخذ رقم هاتفه ومحادثته مرة واحدة على الأقل.. لذا تصرفت بسرعة.. فأخرجت هاتفي النقال من حقيبتي بيد مرتجفة وأنا أنظر إليه منتظرة أن يمليني رقم هاتفه.. فأملاه علي بلهفة واضحة.. لأهرب بعدها من هذا الموقف وأنا أدخل دورة المياه.. قبل أن أعود في النهاية إلى شقيقاتي.

ابتسمت رغما عني.. أدرك جيدا أن هذه عادة ما تكون أجمل اللحظات عند بداية أي علاقة.. أكملت بعدها وهي تقول:

-خرجنا من المطعم بعد حوالي ساعة.. فجلست في السيارة صامتة طوال طريق العودة وبشكل فاجأ شقيقاتي.. لكني عزوت الأمر إلى امتلاء معدتي وعدم رغبتي بالحديث.. بينما في الواقع ذهني

مشغول بهذه المغامرة الصغيرة.. بيدي أن أنهيها وأمسح رقم هاتف ذلك الشاب.. وبيدي الاستمرار بها لأعرف أعماقه وخباياه.. والواقع أنني كنت أرغب بالاتصال به بالفعل.. هل تعرف تلك اللحظات حين تشعر أنك محظوظ وأن الحياة تمنحك تدليلا لا ينتهي؟!.. لقد تخرجت من المرحلة الثانوية للتو.. وربما سيكون هذا الشاب هدية الحياة الجديدة لي.. سأجرب الاتصال به وأرى بعدها ما ستؤول إليه الأمور.. لن أخسر شيئا.. هكذا كنت أقول لنفسي أثناء عودتنا إلى البيت والساعة تقترب من العاشرة والنصف مساء.

سألتها باهتمام:

-وهل اتصلت به؟!!.

ردت بأسى:

-نعم.. اتصلت به بالفعل في وقت متأخر نسبيا وقبل ذهابي إلى النوم.. ما إن رن جرس هاتفه.. حتى أجاب مباشرة وبلهفة واضحة.. كلمته على استحياء وأخبرته أنني الفتاة التي قابلها في المطعم.. فتنهد بارتياح عميق وهو يخبرني عن مدى قلقه وانتظاره طوال الوقت والوساوس التي قتلته خوفا من عدم اتصالي.. ثم بدأ الحديث.. الحديث اللذيذ الذي لا ينسى أبدا في الاتصال الهاتفي الأول بين شاب وفتاة.. أخبرني بكل تفاصيل حياته.. فعرفت أن اسمه (جابر).. وأنه يكبرني بثلاث سنوات.. الغريب أنه يدرس الطب أيضا!!!.. حيث حصل على بعثة دراسية في (إيرلندا) وهو متواجد في (الكويت) الآن في فترة الإجازة الصيفية.. لقد كانت هذه مفاجأة بالفعل وصدفة قلّما تحدث!!!.. بل أنه لم يصدقني حين علم أنني سألتحق بدوري بكلية الطب في (الكويت) قريبا بعد أن تخرجت من المرحلة الثانوية للتو.. لذا راح يتحدث عن القدر الذي جمعنا معا.. وعن شعوره بأنني الفتاة التي سأرافقه في مشوار حياته.. كلام غريب كما ترى.. خاصة حين يأتي من شاب التقيت به منذ ساعات قليلة فحسب.. لكن كلامه كان مؤثرا للغاية.. بل وشعرت أن كل كلمة يقولها مدروسة جيدا وتمس جزءا محددا من قلبي.. وكأن قلبي عبارة عن قيثارة.. وهو بكلماته يلمس نغماتها ويسمعني أجمل الألحان!!!.. لذا ظللنا نتحدث ونتحدث باستمتاع لذيذ وكأننا في عالم آخر.. إلى أن انتبهت فجأة أن الساعة قد تجاوزت الرابعة فجرا.. فاستأذنته للذهاب إلى النوم بسبب النعاس الذي أثقل جفنيّ تماما.. خاصة وأنني لست معتادة على السهر.

كانت تتحدث بهمس أعطى المكالمة جوا من التوتر اللذيذ.. وكأنني أستمع إلى مسلسل إذاعي أهتم كثيرا لمعرفة أحداثه.. ثم:

-استمرت علاقتي ب. (جابر) قرابة الشهرين دون أن يطلب مني أي شيء يدل على نوايا سوداء كنت أخشاها كثيرا آملة ألاّ يكون مثل معظم الشباب.. أعترف أنني التقيت به مرات قليلة بالقرب من أحد الشواطئ بعيدا عن أعين المتطفلين.. ولا أكذب عليك لو أخبرتك أن قلبي تعلق به كثيرا خلال تلك الفترة.. خاصة مع وقت الفراغ وانتظاري لبدء العام الدراسي بعد أن تم قبولي رسميا في كلية الطب.. مما سمح لي بمحادثته ساعات طوال كل يوم تقريبا مع تلك اللقاءات القليلة المتقطعة.. لذا فقد أحببته مع مرور الأيام.. أحببت طموحه وارتباطه الشديد بوالديه وأفراد عائلته.. أحببت كل ما يتعلق به.. حتى أنه بدأ يتحدث عن الزواج.. نعم.. تسارعت الأحداث بصورة غريبة للغاية كما ترى.. لكني كنت سعيدة وواثقة تماما من حبه.. صدقني يا (خالد).. لدي فراسة لا تخطئ أبدا.. المهم أن قصصاً كهذه لا تستمر عادة بتلك الصورة الوردية.. هذا مستحيل.. وإلا لكنت أسعد فتاة في العالم.

حسنا.. ها قد دخلنا في قلب القصة أخيرا.. فكل ما سبق هو بمثابة الموسيقى التصويرية لفيلمها إن صح التعبير.. تنهدت للمرة العاشرة قبل أن تكمل:

-بعد أكثر من شهرين تقريبا من علاقتي به ومع اقتراب العام الدراسي في الكلية.. طلب مني ما كنت أخشاه.. نعم.. طلب لقائي في شاليه عائلته!!!.. وقبل أن أعترض أو أستنكر.. أقسم أنه لن يسيء إلي أبدا.. لكنه فقط يريد أن يقضي معي بعض الوقت بأمان دون أن نضطر للالتفات باستمرار خوفا من أن يرانا أحد.. خاصة وأنه يدرس في الخارج كما أخبرتك وسيعود خلال أيام قليلة إلى (إيرلندا) بعد انتهاء الإجازة الصيفية.

ابتسمت بسخرية غير مقصودة وأنا أقول:

-تبينت نوايا هذا العاشق إذا!!!.

ردت بحسرة:

-بالضبط.. الأمر واضح كما ترى ولا يحتاج إلى تفسير.. لكن.. لكن..

قاطعتها وأنا أقول باستنكار شديد:

-لا تقولي أنك صدقتِهِ وذهبت معه إلى الشاليه.. لا يمكن أن يخدعك بهذه البساطة!!!.

قالت بحزن شديد:

-ليس الأمر كما تتصور على الإطلاق يا (خالد).. صدقني ما ستسمعه مني غريب جدا ولا يمكنك تخيله.. نعم.. أعترف أني وافقت على الذهاب معه إلى الشاليه بعد إلحاحه الشديد وإصراره على ذلك.. خاصة أنني لن أراه بعدها لفترة طويلة بسبب ظروف دراسته.

هل يعقل أن تكون بهذا الغباء؟ !!.. وتقول بعد ذلك أنها نابغة في دراستها وتمتلك فراسة لا تخطئ؟!.. هذه (أغبى فتاة ذكية) عرفتها في حياتي!!!.. ابتسمت لا شعوريا لذلك المصطلح الذي جال في خاطري.. قبل أن تعود الجدية إلى ملامحي بسرعة عندما سمعتها تقول:

-لا يهمني ما ستفكر به يا (خالد) لأنك لا زلت تظن أن القصة تقليدية.. مجرد فتاة خدعها شاب وأخذها إلى مكان ناء ثم راودها عن نفسها وسلبها أغلى ما تملك.. هذا ما تظنه.. لكني أكرر لك.. القصة ليست كما تتخيل أبدا!!!.. فقط استمع إلي أرجوك.. كنت أقول أنني وافقت أخيرا بعد حوالي أسبوع من الإلحاح المستمر ووعوده بأنه يحبني كثيرا وسيحافظ علي ولا يمكن أن يسيء إلي كوني سأصبح زوجته.. فاتفقت معه أن أتبعه بسيارتي إلى الشاليه في وقت مبكر نسبيا لا يتجاوز السابعة مساء.. على أن أعود إلى البيت في التاسعة على أبعد تقدير.. لم أشأ أن أذهب معه بسيارته وأكون تحت رحمته تماما.. المهم.. خرجت في اليوم الموعود بعد أن كذبت على أهلي حين أخبرتهم أنني سأزور صديقتي في منطقة (القرين) القريبة من بيتنا في منطقة (مبارك الكبير) كما تعلم.. فهم لم يكونوا ليسمحوا لي بقيادة السيارة لمسافات بعيدة كوني قد استخرجت رخصة القيادة منذ فترة قصيرة فحسب.

سألتها باهتمام:

-أين التقيت بذلك الشاب قبل أن تلحقي به إلى الشاليه؟!!.

قالت بأسى:

-في مواقف السوق المركزي لمنطقتنا السكنية.. التقيت به هناك ثم تبعته بسيارتي بشيء من القلق كوني لم أعتد على القيادة بصورة كافية.. لكنه كان يراعي ذلك جيدا وهو يقود سيارته بهدوء وبسرعة معقولة دون تهور أو رعونة كي أتمكن من اللحاق به.. كما أنه لم يتحدث معي عبر هاتفي النقال كي لا يشتت تركيزي عن الطريق.. لم يطل الأمر كثيرا.. نصف ساعة تقريبا وصلنا خلالها إلى ذلك الشاليه في منطقة (الجليعة).. ولا أنكر أنني شعرت بحماقة تصرفي وسيارتي تسير في الظلام بعد ابتعادها عن الطريق العام ودخولي ذلك الشارع الفرعي المظلم تماما سوى من الأضواء المنبعثة من بعض الشاليهات هنا وهناك.. لكني ظللت أتبعه رغم كل شيء وعيني ملتصقة تقريبا في الزجاج الأمامي للسيارة.. إلى أن وصلنا أخيرا إلى الشاليه المطلوب حيث دخل بسيارته عبر البوابة الصغيرة المؤدية إلى الساحة الرئيسية.. فتبعته إلى الداخل وأوقفت سيارتي إلى جانب سيارته دون أن أطفئ محركها.. إذ شعرت بقلق مفاجئ وأنا أنظر إلى الشاليه.. هذا مستحيل.. المكان يبدو مهجورا تماما!!!.. وكأن أحدا لم يدخله منذ زمن طويل.. أنزلت نافذة السيارة لأتحدث إليه وأطلب منه توضيحا.. لكنه لم ينظر إلي.. بل عدل من وضع سيارته قليلا قبل أن يطفئ محركها.. ثم نزل منها واتجه ناحيتي وهو ينظر إلي بحنان وحب.. أنتظر منه أن يقترب لأنقل له خواطري واستغرابي من هذا المكان المقفر!!!.. لكنه لم يمهلني.. لم يمهلني على الإطلاق.. إذ تغير كل شيء فجأة.

راحت تلهث دون سبب واضح.. وكأنها تعيش تلك اللحظات مرة أخرى.. فسألتها بلهفة:

-ماذا حدث؟!.. أخبريني؟!!!.

قالت بانفعال شديد:

-من الغريب أن تتحول ابتسامة المرء ونظراته الحنون فجأة إلى نظرات حقد تنوي شرا حتى تكاد لا تصدق أنك أمام نفس الشخص!!!.. فقد تبدلت ملامحه وابتسامته العذبة بسرعة البرق وأصبح وجهه قاسيا باردا مرعبا دون سبب واضح!!!.. ثم.. قام بما لم أتخيله أبدا.. فقد وضع يديه فجأة على رقبتي.. وراح يضغط عليها بكل قوة وهو يقول بكراهية شديدة: ((سأقتلك.. لن تخرجي من هنا حية.. أعدك بذلك)).. قالها وهو يضغط.. ويضغط.. لم أكن خائفة أبدا.. لأن ما حدث كان أقوى من التفكير بأي عاطفة.

كان هذا آخر ما توقعته!!!.. بل وكدت أسألها بغباء:

-وهل قتلك؟!.

فأحيانا كثيرة نطرح أسئلة غبية حين نفقد تركيزنا.. لكن لحسن الحظ تداركت هذا السؤال وقلت بالمقابل:

-يا إلهي.. لم.. لم أتوقع ذلك بالفعل!!!.

قالت معاتبة:

-لقد أخبرتك.. لن تتوقع ما سيحدث أبدا.

سكت مبهوتا ولم أرد.. لتكمل:

-لم أجد الوقت لأقاومه.. فقد أوقف أنفاسي تماما وهو يضغط على رقبتي بكل قوته.. لكني تداركت نفسي في جزء من الثانية لحسن الحظ.. وراح عقلي يفكر بطريقة جنونية -إن صح التعبير

-لإنقاذي.. قبل أن أتذكر فجأة أن هناك مفتاحاً احتياطياً للبيت يضعه أبي دوما في جيب الباب الجانبي للسيارة.. لذا مددت يدي اليسرى بصعوبة شديدة أبحث عنه وبوجه خلا تماما من الدماء.. إلى أن وجدته أخيرا.. أمسكت بالمفتاح وغرسته في عين ذلك الوغد.. فتركني وسقط على الأرض صارخا من الألم وهو يطلق شتيمة قذرة جدا.. أما أنا فرحت أملأ جوفي بالهواء لفترة من الزمن تجاوزت الدقيقة ربما قبل أن يعود تنفسي إلى طبيعته.. عندها حاولت التصرف بسرعة.. فقررت إرجاع سيارتي إلى الوراء للخروج من البوابة ومن ثم الهرب من هذا الكابوس.. لكني فوجئت بأن (جابر) قد ركن سيارته في وضع مائل قليلا لحظة وصولنا الشاليه ليغلق علي الطريق.. لقد تعمد ذلك كما يبدو حتى لا أتمكن من الهرب.. لذا لم يكن هناك بدا من النزول من سيارتي والهرب ركضا خارج بوابة الشاليه.. لكني لم أجد الوقت لذلك.. إذ يبدو أنه تدارك نفسه في اللحظات التي التقطت فيها أنفاسي بعد محاولة الخنق.. فهرع ليقف عند البوابة ويمنعني تماما من الهرب.. كان يضع يده على عينه المصابة وهو يمطرني بسيل من الشتائم ويعدني بفقأ عيني!!!.. نظرت حولي برعب والادرينالين يكاد يسيل من جسدي بعد أن ملأه.. أناقتي تبعثرت بالكامل والماكياج سال تماما على وجهي بسبب حرارة الجو.. كان أمامي جزء من الثانية لاتخاذ القرار.. فاتخذته!!!.. نعم يا (خالد).. الفرار إلى داخل الشاليه نفسه.. فركضت بكل قوتي إلى أن وصلت إلى باب الشاليه لأجده مفتوحا لحسن الحظ.. دخلت بسرعة آملة أن يكون هناك باب خلفي للخروج نحو الشاطئ والاستنجاد بالناس في الشاليهات الأخرى.. هذا ما قلته لنفسي.. جميع الشاليهات تحوي أبوابا خلفية تقودك مباشرة إلى الشاطئ كما تعلم.. دخلت أخيرا لأجد نفسي ضائعة تماما وسط ظلام شديد لا قرار له.. عادة ما يسبب لي هذا الظلام الدامس ذعرا يشل حركتي.. لكن.. ترف الخوف من الظلام لن يكون في ذهن فتاة تهرب من شاب مجنون يريد قتلها لسبب لا يعلمه أحد.

سكتت طويلا.. ثم سمعتها تشرب شيئا.. كوب من الماء ربما بعد أن نشف لعابها.. لتكمل:

- كان دخولي الشاليه كارثة حقيقية وأنا أصطدم بقطع الأثاث المتناثرة هنا وهناك مما تسبب بسقوطي على الأرض أكثر من مرة.. كل هذا دون أن أشعر بأي ألم بعد أن تبلّدت مشاعري الأخرى بسبب الخوف الغريزي على حياتي.. ثم.. احتبست أنفاسي فجأة وأنا أسمع وقع أقدام (جابر) تقترب من الباب وهو لا يكف عن شتمي بأقذر الألفاظ ويتوعدني مرة أخرى بفقأ عيني قبل أن يقتلني!!!.. يا إلهي.. أي حقير هذا الذي يستغل حب فتاة بريئة ويرغب بقتلها بعد أن وثقت به؟ !!.. حقا أن العالم مخيف.. مخيف للغاية.. لم أكن لأتخيل يوما أن أمرا كهذا قد يحدث لي.. دارت تلك الخواطر المروعة في ذهني وأنا أسمع ذلك الصوت.. تشاك.. تشاك.. نعم.. صوت ولاعة أشعلها (جابر) فأنارت المكان بصورة كافية ساعدتني لأنتبه إلى قربي من أحد الممرات.. ممر صغير يؤدي إلى الغرف أو ربما إلى الباب الخلفي المؤدي للشاطئ كما أتمنى.. فنهضت رغم الألم الذي أصاب خاصرتي نتيجة اصطدامي بما تبين أنه منضدة قديمة وسط الصالة.. واتجهت مسرعة ناحية الممر.

كادت أن تخطف أنفاسي بكلماتها تلك.. لحسن حظها أنها نجت.. ولا أعرف في الواقع حتى الآن كيف فعلتها.. سأعرف منها كل شيء دون شك.. أكملت بعدها بلهفة:

-(خالد).. لا يمكن أبدا أن تتصور حالة الرعب التي مررت بها.. لقد تمنيت للحظة أن يعثر علي والدي ويوسعني ضربا ويجرني من شعري.. فهو سيأخذني معه إلى البيت على الأقل.. إلى عالمي الجميل الذي نسيته تماما.. فقد أصبح هذا الشاليه اللعين هو عالمي الآن.. المهم أنني جريت في

الممر القصير دون أن أنظر إلى الوراء وذلك الوغد لا يزال يشتم ويتوعد.. لأجد نفسي في المطبخ.. لحسن الحظ أن شباك المطبخ كان كبير نسبيا فأضاء نور القمر المكان إلى حد ما.. وهذا ما ساعدني على العثور على باب الخلاص.. باب الخروج المؤدي إلى الشاطئ كما كنت أتوقع.. فتنفست الصعداء إلى حد كبير وأنا أتجه إلى مقبض الباب.. لكن احتبست أنفاسي مرة أخرى حين علمت أن الباب موصود بالمفتاح.. لن أجد الوقت لأركله وأفتحه بالقوة.. هذا إذا استجاب لقوتي طبعا!!!.. صوت (جابر) يقترب.. انتبهت ناحية الشباك.. إنه عالق لا أستطيع فتحه.. التفت حولي بذعر أبحث عن مخرج من هذا المأزق وأتساءل بنفس الوقت عن كيفية تحول شاب من عائلة محترمة ويدرس الطب إلى مجرم فجأة!!!.. لكن.. تلاشى هذا السؤال من ذهني حين وجدت باباً صغيراً آخر في المطبخ.. اتجهت ناحيته وفتحته.. يا إلهي.. يا إلهي.. لا يمكنك أن تتصور أبدا ما عثرت عليه خلف الباب.. لم تكن مفاجأة.. بل صدمة عنيفة لا تصدق!!!.

سكتت وهي تشهق فسألتها بحدة غير متعمدة:

-ماذا حدث يا (أنمار)؟!.. ماذا وجدت خلف ذلك الباب؟!!!.

ردت بصوت مرتجف:

-(خالد).. لقد كانت هناك فتاة أخرى!!!!.. فتاة أخرى مختبئة في تلك الغرفة التي لم أتبين ماهيتها بعد.

هذه قصة غريبة بالفعل تحوي مفاجآت لا تنتهي!!!.. حتى أنني وضعت يدي على رأسي لأقول:

-ما تقولينه مستحيل تماما.. أنا لا أفهم شيئا.

ردت متجاهلة تعليقي:

-الغريب أن الفتاة جذبتني من يدي بقوة ووضعت يدها على فمي كي لا أصرخ.. تماما كما يفعلون في الأفلام!!!.. والأغرب أنها همست بصوت متوتر للغاية: ((أرجوك لا تصرخي وإلا سيعثر علينا (جابر) ويقتلنا.. أرجوك)).. التفت إليها بذهول محاولة تبين ملامحها.. لكني عجزت تماما بسبب الظلام الشديد.. هذه الفتاة.. هذه الفتاة.. هل هي ضحية من ضحايا (جابر) أيضا؟ !!.. هذا لا يصدق.. منذ متى وهي مختبئة هنا؟ !!.. وكيف لم يعثر عليها حتى الآن؟!.. ولماذا ظلت مختبئة طوال الوقت إذا لم يكن هناك أحد في الشاليه يمنعها من الخروج سوى الآن؟!.. أسئلة منطقية للغاية لكن الوقت لم يكن يسمح بالبحث عن إجابات وأنا مختبئة مع الفتاة في تلك الغرفة وسط الظلام الدامس والعرق يغمر وجهي بالكامل.. أين أنا؟!.. هل أنا في غرفة المخزن؟!.. على الأرجح نعم.. ظللنا متسمرتين في مكاننا ونحن ننتظر.. وننتظر.. الهدوء يعم المكان تماما.. حتى صوت (جابر) لم أعد أسمعه.. أين ذهب هذا اللعين؟!.. ألن يبحث عنا؟!.. لم أجد الوقت لأفكر.. إذ فتح باب المخزن فجأة.. كان هو.. (جابر).. وقد تحول إلى شيء آخر!!!.. خاصة بعد أن غطى عينه المصابة بقطعة قماش بطريقة بدائية جعلته يبدو كسفاح مختل عقليا يحمل ولاّعته بيد.. ويده الأخرى ممسكة بسكين مخيفة المنظر.. ثم.. ابتسم تلك الابتسامة الصفراء وهو يقول بسخرية: ((سأبدأ بمن يا ترى؟!.. بمن؟!)).. قالها وانقض مباشرة على الفتاة الأخرى ليسقطها أرضا ويجلس فوقها محاولا تكبيلها ومن ثم طعنها.. أما هي فراحت تحاول مقاومته وتصرخ بهلع وصدى صوتها يبدد هدوء المكان.. تصلّبْت تماما أمام هذا المنظر.. قبل أن أنتبه فجأة إلى صخرة كبيرة الحجم نسبيا مرمية بإهمال عند باب المطبخ المؤدي إلى الخارج.. يبدو أنهم يستخدمونها عادة لإبقاء باب المطبخ مفتوحا كما نفعل مع بعض الأبواب في بيوتنا.. ذهبت إلى الصخرة دون

تردد وأمسكت بها بكلتا يدي.. ثم.. ضربت بها رأس ذلك اللعين.. مرة.. مرتين.. ثلاث.. أفعل هذا بيد مرتجفة.. لكن ضرباتي جاءت بنتيجة كما يبدو.. فقد خارت قواه.. ووقع على الأرض وهو ينتفض وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.. لتهمد حركته تدريجيا بعد أن تشوهت جمجمته من قوة ضرباتي وامتلأ رأسه ووجهه بالدماء.. رميت الصخرة بعيدا وأنا ألهث بصورة واضحة من هول الموقف!!!.

كنت أستمع إليها وأتساءل.. متى تنتهي هذه الغرائب التي أمر بها؟!.. متى سأعيش كباقي الناس؟!.. لماذا أنا؟!.. لماذا أغرق دوما في تلك العوالم منذ سن الـ 16 تقريبا وأرى ما لم يره أحد غيري؟!.. و.. أمام صمتي التام وعقلي الذي غرق وسط تلك التساؤلات.. أكملت (أنمار):

-بعد أن استوعبت الصدمة.. تذكرت هاتفي النقال.. إنه في حقيبتي في السيارة.. هرعت إلى سيارتي في الخارج وأخرجت الهاتف من حقيبتي لأنظر إلى الساعة مباشرة.. إنها تتجاوز الثامنة بقليل.. لا توجد أي اتصالات من عائلتي لحسن الحظ.. يجب أن أعود الآن وسأجد طريقة أعتني فيها بمظهري قبل دخولي البيت.. سأحاول أن أخفي أي كدمات أو جروح تعرضت لها.. أقول هذا الكلام لأطمئن نفسي وأنا أوجه نظري نحو الفتاة التي لحقت بي إلى الخارج وهي تنظر إلي مستنجدة.. طلبت منها أن تركب سيارة ذلك الوغد وتبعدها عن البوابة.. لحسن الحظ كانت المفاتيح موجودة في السيارة.. فامتثلت لأوامري وذهبت لتبعد سيارته عن طريقي.. ثم ترجّلَت منها وركبت معي.. لنخرج أخيرا من هذا الكابوس وقد أنعشَنا كثيرا الهواء البارد الذي ينبعث من جهاز التكييف.. كنت أقود سيارتي بسرعة مستدله بالأنوار التي تنبعث من الشارع العام.. إلى أن وصلت إليه بعد حوالي 10 دقائق.. لنشعر أخيرا أننا نعيش حياة عادية كباقي الناس.. كان واضحا أن كل منا في مأزق مخيف.. هناك جريمة قتل وجثة تركناها في ذلك الشاليه.. سيتم كشف أمرنا إن عاجلا أم آجلا.. لقد تعلمنا من القصص والأفلام أنه لا توجد جريمة كاملة.. خاصة وأننا تركنا عدداً هائلاً من البصمات هناك.. لكني حاولت التفكير بطريقة عملية رغم لحظات القلق والرعب تلك.. إذ قررت التوجه إلى أحد مطاعم الوجبات السريعة التي لمحتها أثناء طريقي إلى الشاليه.. هذا المطعم يبدو منعزلا تماما وغير مزدحم بالزبائن.. سأستخدم دورة المياه هناك لأعدل مظهري قبل عودتي إلى البيت.. أردد هذا الكلام في ذهني وسيارتي تشق الطريق وتنحرف يمينا ويسارا بسبب توتري الشديد وارتجاف يدي.. إلى أن وصلنا إلى المطعم أخيرا.. ولحسن الحظ كان شبه خال كما توقعت.. فركنت سيارتي أمام نظرات الفتاة المستغربة وكأنها تريد أن تقول: ((وهل هذا وقت الشعور بالجوع؟!)).. لأنتبه فجأة إلى أننا لم نتبادل كلمة واحدة منذ ركوبها معي.. هذا غريب!!!.. هل التهم القلق تفكيرنا لهذه الدرجة؟!.. غمغمت بصوت قلق وأنا أنظر إليها مباشرة: ((يجب أن نعدل من مظهرنا.. لا يمكن أن تعود كل منا إلى بيتها بهذه الصورة))!!!.. كانت المرة الأولى التي أملك فيها الوقت لأنظر إليها بوضوح تحت الأضواء.. إنها فتاة بيضاء البشرة طويلة الشعر.. نحيلة إلى حد ما.. ترتدي فستانا طويلا تمزق جزء منه بسبب اعتداء ذلك اللعين عليها.. المهم أنني ترجلّت من السيارة ومشيت ناحية باب المطعم.. فتبعتني بدورها باستسلام وبدت لي وكأنها تبحث عن الأمان من خلالي كوني أنا التي أنقذتها من (جابر).. دخلنا المطعم واتجهنا مباشرة إلى دورة المياه دون أن ننظر ناحية العاملات الآسيويات اللاتي ألقين علينا عبارات الترحيب بصوتهن الغنائي المعتاد.. و.. ما إن تواجدت في دورة المياه.. حتى أغلقت الباب على نفسي لأشعر بالأمان لأول مرة.

سألتها باستغراب:

- هناك أمور كثيرة لا أفهمها حتى الآن.. من أين جاءت تلك الفتاة؟!.. وكيف وصلت إلى الشاليه؟!.. ثم.. هل يعقل أن يتحول طالب متفوق في كلية الطب إلى قاتل دون سبب؟!.. من الواضح أن كل ما قاله لك كان كذبا.. حتى بشأن تخصصه الدراسي.

ردت بسرعة:

-مستحيل.. لقد كان يتحدث معي حول التخصص ويذكر بعض المصطلحات الطبية التي يجهلها عامة الناس.. وأحيانا يجيب على أسئلة صعبة لا يمكن أن يعرفها إلا من يدرس الطب فعليا!!!.. أما كيف تحول إلى قاتل ولماذا أراد قتلنا فهذا لغز لا أعرف إجابته.

سألتها متجاهلا تلك النقطة مؤقتا:

-ماذا عن الفتاة.. ما هي قصتها بالضبط؟!!.

قالت بغموض:

- دعني أكمل لك.. لقد كنت أقول أنني دخلت الحمام.. ونظرت إلى شكلي في المرآة وشعري المبعثر والماكياج الذي سال ولوث وجهي.. فانفجرت في البكاء فجأة من هول ما مررت به ولسوء مظهري بعد تلك الليلة السوداء.. غير مصدقة أنني قتلت الشاب الذي ظننت أنه سيصبح زوجي يوما.. وغير مصدقة أيضا أنني نجوت من الموت بأعجوبة.. أخذت بعدها نفسا عميقا وملأت وجهي بالماء لأحصل على بعض الانتعاش.. ثم رحت أغسل يدي وذراعي وفي نفس الوقت ألقي نظرة دقيقة على ثيابي.. لحسن الحظ لم تكن قد تضررت كثيرا.. ربما تلفت قليلا بسبب سقوطي على الأرض.. لكن.. نفضة سريعة قد تزيل الغبار عنها.. أخرجت بعدها زجاجة العطر الصغيرة من حقيبتي.. و تششششش تشششششش.. ثم قمت بترتيب شعري ووضعت أحمر الشفاه لأبدو بحال أفضل.. استندت بعدها إلى حائط الحمام لأرتب أفكاري.. أفكر بالمشكلة الكبيرة التي وضعت نفسي فيها.. وجريمة القتل التي ارتكبتها.. التحقيقات.. الشرطة.. إنهم جبابرة.. سيعثرون على شعرة صغيرة.. ظفر مكسور.. واحدة من الألف بصمة التي تركتها هناك.. آثار أقدام سيميزون منها جنسية ولون بشرة القاتلة.. كيف؟!.. لا أعلم!!.. لكنهم يفعلونها دائما.. الخواطر تدور في رأسي.. أتذكر حياتي البسيطة الجميلة.. أتذكر دراستي.. عائلتي.. كل شيء كان يسير بصورة رائعة قبل لقائي بهذا الحقير الذي سيضيع مستقبلي بسببه.. و.. بعد دقائق من التفكير.. وجدت أن الحل الوحيد المتاح أمامي حاليا هو الذهاب إلى البيت أولا.. على أمل أن أدخل غرفتي دون أن ينتبه أحد لشيء.. سيزاح عني هما ثقيلا حينها.. ولكن.. يجب إيصال تلك الفتاة إلى بيتها قبل ذلك.. خرجت من الحمام لأجد الفتاة بانتظاري وقد عدلت من مظهرها كثيرا وأمسكت حقيبتها بطريقة فنية -نتقنها جيدا نحن الفتيات -لتخفي مكان تمزق ثيابها.. يبدو أنها لم تنتظر خروجي واختارت دخول دورة مياه الرجال.. بكل تأكيد.. فمن لديه البال الرائق ليفكر بقواعد اللياقة الآن.. أشرت إليها لتتبعني إلى السيارة.. وما إن ركبنا وابتعدنا عن المكان.. حتى سألتها مباشرة: ((كيف جئت إلى ذلك الشاليه؟!.. من الذي أتى بك إلى هناك؟!!)).. ردت بصوت باكٍ: ((تاكسي الأجرة.. فأنا لم أحصل على رخصة قيادة حتى الآن.. لقد أخبرت أفراد أسرتي أن صديقتي ستأتي لتأخذني معها لحفل استقبال صديقة ثالثة.. وبالفعل.. جاءت صديقتي التي اتفقت معها على كل شيء وأخذتني إلى السوق المركزي لمنطقة أخرى قريبة.. ومن هناك ركبت سيارة أجرة وذهبت إلى الشاليه بعد أن أخذت الوصف كاملا من (جابر) الذي رسم لي خريطة توصلني بسهولة إلى المكان.. وما إن وصلت ونقدت السائق أجرته ليعود من حيث جاء.. حتى فوجئت بملامح (جابر)

وهي تتغير إلى القسوة الحقد!!!.. فأمسكني من رقبتي بقوة ودفعني دفعا إلى الشاليه وهو يقسم أنه سيقتلني.. كان يتحدث بطريقة غريبة لم أعهدها فيه من قبل)).. سألتها عن كيفية لقائها به.. فقالت أنها التقت به بالصدفة أثناء تواجدها في مجمع (المارينا) التجاري.. حيث ظل يلاحقها هناك ويتودد إليها إلى أن أقنعها بأخذ رقم هاتفه.. لن أكذب عليك يا (خالد) إذا قلت أن هذا أشعرني بشيء من الغيرة!!!.. هذه مشاعر الأنثى التي لا يفهمها أحد سواها.. شاب خدعني وأعرف أنه كاد أن يقتلني.. ومع ذلك شعرت بالغيرة من هذه الفتاة لأنه كان يحاول كسب ودها أيضا.. وإن كان الأمر بأكمله بمثابة الفخ ليأتي بنا إلى الشاليه كما يبدو.. هل تعرف ما الأغرب من كل ما ذكرته لك؟!.. لقد عرفت من الفتاة أنها تدرس في كلية الطب أيضا.. وهي متفوقة جداً بدورها.. هل هذه صدفة؟!!.

اتسعت عيناي دهشة وأنا أنظر إليها غير مصدق.. هذا مستحيل!!!.. سألتها بذهول:

-أنت.. و(جابر).. وتلك الفتاة.. جميعكم تدرسون في كلية الطب؟!!!.. هذا مستحيل.. لا يمكن أن تصل الصدف إلى هذا الحد الغريب.. ثم.. كيف تمكن من حبس الفتاة في غرفة المخزن ومن ثم العودة إلى منطقتك السكنية لتتبعيه بسيارتك؟!.. لقد كانت تملك وقتا كافيا للهرب أثناء ذلك.. فلماذا لم تهرب؟!!.

تنهدت بعمق.. ثم:

-تقول الفتاة أنها فقدت وعيها بعد أن كممها (جابر) بمنديل يحوي مادة مخدرة.. ولم تستيقظ إلا مع الضجيج الذي صدر مني أثناء هروبي منه وبحثي عن مخرج آخر للشاليه.. أما بخصوص الشق الأول من سؤالك فالفتاة تدرس الطب فعليا في (مالطا) كحال بعض الطلبة الكويتيين.. أدرك جيدا أن قصتي صعبة التصديق.. لكن هذا ما حدث.. المهم أنني أوصلت الفتاة -التي عرفت أن اسمها (حنان) -إلى السوق المركزي لمنطقتها حيث من المفترض أن تأتي صديقتها وتقلها إلى بيتها.. وقد أخذت منها رقم هاتفها تحسبا للظروف.. أما أنا فرحت أفكر بمشكلتي والتساؤلات تنهال على دماغي من كل صوب.. كيف تحول (جابر) الحنون الطموح الذي أحببته إلى مجرم فجأة؟!.. وهل هو يلاحق الفتيات اللاتي يدرسن الطب لسبب ما؟!.. هذا أقرب الاحتمالات إلى التصديق.. لكن.. كيف عرف أنني سألتحق بكلية الطب أصلا حين لاحقني في المرة الأولى؟!.. هل كان يتتبعني وقد استخرج بعض المعلومات عني؟ !!.. لماذا؟ !!.. ما الهدف من كل هذا؟ !!.. (خالد) لحظة من فضلك.

سمعتها تشرب شيئا ما.. لا ألومها.. فقد تحدثت كثيرا كما تعلمون.. عادت بعدها إلى السماعة منتعشة لتكمل:

-وصلت البيت متأخرة قرابة الساعة عن موعدي وقد تركت كل تساؤلاتي خلف ظهري.. فعلي الآن مواجهة أهلي.. لكن.. لحسن الحظ مرت الأمور بسلاسة غير متوقعة.. إذ لم أجد في طريقي إلى غرفتي سوى والدتي التي ألقت علي تحية عابرة دون أن تنتبه إلى شيء بسبب انشغالها في محادثة هاتفية.. عندها فقط انزاح عن كاهلي حمل ثقيل.. فاتجهت مباشرة لآخذ حماما ساخنا جعلني أشعر وكأنني رميت تلك الحادثة بأكملها خلف ظهري.. لكن هذه المشاعر المؤقتة لن تحل المشكلة.. لا تزال هناك جثة.. لا تزال هناك جريمة قتل!!!.. فظللت منذ ذلك الحين قلقة متوترة خائفة من كشف أمري في أي لحظة.. هذا كل ما حدث يا (خالد).. لقد مضى على تلك القصة أكثر من أسبوعين وأنا أنتظر لحظة القبض علي كل يوم.. لا يمكنك أن تتصور كيف هو انتظار

البلاء.. أحيانا أتمنى أن تقبض علي الشرطة فعليا لينتهي الأمر.. إنني لا أستطيع التركيز في دراستي التي بدأت للتو كما تعلم.. أشعر بالضياع.. بالرعب.. بالقلق المتواصل!!!.

قلت بشيء من الخجل:

-المعذرة.. أعترف أن قصتك غريبة بالفعل وقد أثارت اهتمامي كثيرا.. لكن.. ما هي المساعدة التي تطلبينها مني بالضبط؟!!.

زفرت بعمق وهي تقول:

-تبدو لي صامتا كتوما.. بل أكاد أقسم أنني لم أرك تتحدث مع أحد من قبل في الكلية!!!.. وقد سمعت أنك نابغة.. لذا أريدك أن تقف إلى جانبي وتجد لي مخرجاً من هذا المأزق.. وأريدك أيضا أن تلتقي ب. (حنان).. الفتاة التي أنقذت حياتها وعاشت معي لحظات الرعب تلك.. فهناك أمور أخرى ستذهلك ولن تصدقها إلا لو جلست معها وتحدثت إليها بنفسك.. لقد أخبرتها عنك وهي لا تمانع لقاءك على أمل أن تساعدنا.. أرجوك.. أرجوك ساعدنا.

حسنا.. من الصعب أن أعتذر عن مساعدتها بعد أن وثقت بي وأخبرتني بقصتها كاملة.. لذا قلت مفكرا:

-لا أمانع ذلك بكل تأكيد.. لكني لا أعرف إن كنت سأتمكن من مساعدتك يا (أنمار).. سأحاول على كل حال.. حسنا.. هل من المناسب أن نلتقي غدا الساعة 6 مساء في (ستار بكس) منطقة (مشرف)؟!!.

ردت بأمل:

-بكل تأكيد.. لكن أرجوك أن تتذكر.. لا يوجد من أثق به أو أعتمد عليه سواك.. فلو علم والدي بالأمر لقتلني.. والأمر سيكون أسوأ لو أبلغت أشقائي.

طمأنتها أن الأمور ستكون على ما يرام وأن تلك القصة لن تخرج من لساني أبدا.. لأنهي المكالمة أخيرا بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة فجرا بقليل.. لقد تحدثنا طوال ساعتين تقريبا لكني لم أشعر بالوقت إطلاقا من هول أحداث قصتها وغرابتها.. استلقيت بعدها على الفراش.. ورحت أتنقل بين قنوات التلفاز قرابة نصف الساعة لأشعر أن جفوني بدأت تثقل.. فدسست نفسي تحت اللحاف وغرقت في بحر الأحلام.. ليمر يوما آخر من حياتي.

لم يحدث الكثير في اليوم التالي (الجمعة).. تماما كحال معظم أيامي.. الاستيقاظ في الحادية عشرة صباحا.. الذهاب بعدها إلى المسجد.. تناول الغداء مع جدتي الغالية.. ثم المذاكرة لبضع ساعات.. هذا هو الهدوء والروتين الذي أحبه.. لكن هناك تغيير بسيط في جدولي لهذا اليوم كما تعلمون.. إذ استأذنت جدتي للخروج.. وركبت سيارتي لألتقي ب. (أنمار) و(حنان) حسب الاتفاق.

عندما وصلت إلى مقهى (ستار بكس) والساعة تتجاوز السادسة بدقائق قليلة.. وجدت (أنمار) جالسة هناك تنتظرني مع فتاة أخرى بيضاء البشرة أضاف لون بشرتها المزيد من الجمال لملامحها.. هذه (حنان) كما يبدو.. ألقيت عليهما تحية سريعة وتبادلت عبارات التعارف مع (حنان).. ثم قمت بدوري كـ (جنتلمان).. إذ نهضت لطلب قهوة للفتاتين أمام اعتراضهما الشديد وأن لا وقت هناك للمجاملة.. لكني كنت مصرا.. لحظات قليلة قبل أن أعود إليهما ممسكا بصفحة تحوي 3 أكواب ساخنة من قهوة ال. (لاتيه).. وراح كل منا يفتح كيسا من السكر ويجهز قهوته للشرب.. ثم.. قلت ل. (أنمار) فجأة:

-في الواقع لا أفهم سبب إصرارك على لقائي ب. (حنان).. و....

لم أكمل عبارتي.. إذ نظرَت الفتاتان إلى بعضهما بسرعة.. وكأنهما متفقتان على أمر ما.. ثم أخرجت كل منهما بطاقة من حقيبتها ووضعتها أمامي على الطاولة!!!.. نظرت إلى البطاقتين بعدم فهم.. إنها الهوية الشخصية لكل منهما.. ما الذي تريدان قوله بالضبط؟!.. كدت أن أطرح عليهما هذا السؤال.. لكني ابتلعت كلماتي فجأة حين لاحظت أمرا لا يصدق.. أحدق بالبطاقتين.. ثم أحدق بالفتاتين.. هذا لغز حقيقي!!!.. أنا لم أقتنع أبدا أن تشابه تخصص الفتاتين الدراسي كان بمحض الصدفة.. لكن ما أراه الآن يؤكد لي أن الأمر يتجاوز قوانين الصدفة كثيرا.. فالفتاتان تحملان نفس تاريخ الميلاد!!!.. هذا مستحيل.. مستحيل تماما.. سألتهما بذهول:

-هل أنتما توأمين؟!!!.

قالت (حنان) بحدة فاجأتني كثيرا:

-وهل نبدوا لك كتوأمين؟ !!.. لو كنا توأمين فسنحمل نفس اسم الأب.. لقد قالت (أنمار) أنك بالغ الذكاء.. أنا لا أرى هذا الذكاء.

كان ردها بمنتهى الوقاحة!!!.. خاصة وأنها المرة الأولى التي أقابلها فيها.. فشعرت بحرج شديد وقد احمر وجهي بوضوح.. بل ولمحت (أنمار) وهي تتنحنح بحرج من هذا الموقف.. لكني حاولت أن ألتمس لها العذر.. هذه الفتاة كانت على وشك التعرض لجريمة قتل منذ حوالي أسبوع.. فلا يمكن أن تكون متزنة نفسيا.. إنها معرضة للمساءلة من قبل رجال الشرطة أيضا.. معرضة للفضيحة كونها خرجت لتلتقي بذلك المدعو (جابر).. الأمر أكبر بكثير من أن تفكر بمجاملتي.. لذا تجاوزت تلك الإهانة وهززت كتفي مستغربا.

قالت (أنمار) بغموض متجاهلة الحوار السابق:

-فتاتان تحملان نفس تاريخ الميلاد.. وتدرسان نفس التخصص.. ما هي نسبة حدوث صدف كهذه؟ !!.. لقد أخبرتك أن (حنان) تدرس الطب في (مالطا) وستسافر إلى هناك فعليا مساء الغد قبل بداية العام الدراسي.. لكني نسيت أن أضيف أنها متفوقة جدا أيضا في دراستها.

هذا التشابه المريب بين حياة الفتاتين لا يصدق.. حاولت تدارك الأمر.. وسألتهما بتخاذل:

-هل.. هل تمارسان لعبة ما؟!.. هل تريدان إيقاعي بشرك ما؟!!!.

ردت (أنمار) بعصبية:

-ولماذا نفعل ذلك يا (خالد)؟!.. أنا زميلتك في الكلية.. أنت تعرف اسمي وتعرف الكثير عني.. بل وجعلتك تطّلع على بطاقتي الشخصية.. فلماذا أحاول خداعك كما تخرف؟!!.

سكت محاولا امتصاص غضبها.. بالفعل كلامها سليم تماما.. إنني أبحث عن مخرج من سيل الألغاز هذا.. وأسهل المخارج هو أن الأمر كله عبارة عن خدعة ما.. لكن هل توجد خدعة أصلا؟!.. كل شيء يوحي بعكس ذلك.. أغمضت عيني وأنا أنظر إلى سقف المقهى متجاهلا تماما كل من حولي.. إلى أن قلت ل. (أنمار) فجأة:

-لقد جئت لمقابلتك مع (حنان) كما طلبت مني.. فما نوع المساعدة التي تريدانها بالضبط؟!!.

قالت (أنمار) بأمل:

-نحتاج أن نلقي بمشكلتنا هذه على عاتق رجل.. ربما ستجد لنا حلا.

هذا ليس عدلا.. لا يستطيع أي محقق شرطة في العالم العثور على إجابات لهذا اللغز الغريب.. ولو كنت رائق البال لنشرت القصة بمواقع الانترنت ورصدت جائزة لمن يقوم بكشف ملابساتها.. لكن.. مهلا.. هناك نقطة هامة طرأت في ذهني فجأة علها توضح الكثير.. يا لي من غبي.. كيف فاتني هذا الأمر؟ !!.. سألت (أنمار) بسرعة:

-ماذا عن ذلك الشاب.. (جابر).. هل لا زلت تحتفظين برقم هاتفه؟!!.

قالت بارتباك واضح:

-لا.. لقد محوت رقم هاتفه من جهازي.. أردت أن أقطع كل صلتي به.. بل ومحوت أيضا كل رسائله السابقة.. مع الأسف أنا حتى لا أتذكر رقمه.. الناس لا تحفظ أرقام الهواتف هذه الأيام كما تعلم.

نظرت إلى (حنان).. فهزت رأسها نفيا بأسى وكأنها فعلت الشيء ذاته.. بكل تأكيد.. هذه الأشياء تشبه أن يقوم المجرم بمسح كل بصماته عن مسرح الجريمة.. وعند الانتهاء منها يشعر بشيء من راحة البال وكأنه أزاح هما ثقيلا عن كاهله.. ثم.. يا إلهي!!!.. طرأ في ذهني أمر آخر مخيف.. سألتهما بحذر:

-مهلا.. مهلا.. هل تعنيان أن جثة (جابر) لا زالت ملقاة في ذلك الشاليه منذ حوالي أسبوعين ([2])؟!!.

أجابت (حنان) بتوتر:

-بالطبع.. ما الذي تتوقعه منا؟ !!.. أن نتصل بالشرطة مثلا؟!.. أو نتصل بأفراد أسرته لنخبرهم بما حدث؟!!.

سألت مبهوتا:

-ماذا عن الشاليه؟ !!.. هل تذكران كيفية الوصول إليه؟ !!.. وهل تعرفان إن كان بالفعل يخص عائلة (جابر)؟!!.

ردت (أنمار) وهي تنظر إلى السقف محاولة أن تتذكر:

-كل ما أذكره هو أن الشاليه في منطقة (الجليعة).. ربما لو ذهبت إلى المنطقة نفسها سأتمكن من العثور عليه بشيء من البحث.. لكني لن أجرؤ على ذلك.. يقولون أن المجرم دائما يحوم حول مسرح الجريمة.. وجودنا هناك قد يثير الشبهات إذا ما رآنا أحد.

كلامها سليم.. لكن الذهاب إلى الشاليه مرة أخرى قد يكشف لنا شيئا.. خاصة إذا عبثنا بمحفظة جابر ورأينا هويته الشخصية.. ما الجدوى من ذلك؟!.. لا أعلم.. ربما سنعثر على شيء ينير لنا الطريق.. نقلت خواطري تلك إليهما قبل أن أخرس فجأة!!!.. هناك مشكلة حقيقية وعائق قوي سيمنعني من الذهاب إلى هناك.. فأنا جبان لدرجة مروعة.. هذه حقيقة يعرفها كل من قرأ مذكراتي السابقة.. كما أنني أخشى الظلام كثيرا.. لا يمكن أن أدخل شاليه يحوي جثة ملقاة فيه بإهمال منذ أسبوعين وفي طريقها إلى التعفن.. إن الخيال سيصنع العجب معي وربما سأموت بسكتة قلبية قبل دخولي المكان.. هذا إذا كانت الشرطة لم تكتشف وجود الجثة حتى الآن.. و.. يبدو أن (أنمار) فهمت صمتي المفاجئ ونظراتي الحائرة الخائفة.. إذ قالت متوسلة:

-(خالد).. يبدو أن لا مفر من الذهاب إلى الشاليه مرة أخرى.. إنني أحتاج إليك لتذهب معي.. لا أستطيع الذهاب بمفردي.. خاصة وأن (حنان) ستسافر صباح الغد لاستكمال دراستها.. أرجوك.. أنا أعيش كوابيس يومية.. لقد انعزلت تماما عن أسرتي.. وأظل دوما أبحث عن الأعذار حتى أختبئ منهم في غرفتي.. بل أن شقيقتي تظن أنني أمر بقصة حب وعلى خلاف مع من أحب.. لا تعلم أن في ظنها شيء من الصحة مع الفارق أن من أحببته هو مجرد قاتل حقير يرقد جثة هامدة في شاليه مهجور لا نعرف حتى مالكه الحقيقي.

قلت بتوتر:

-لقد مررت بالكثير من المصائب والألغاز في حياتي القصيرة.. ورأيت من الغرائب ما لم يره إنسان.. ولو أخبرتكما بما عشته من تجارب فستظنانني مجنونا أو كاذبا.. أعترف أن عقلي كان سببا مهما في بقائي على قيد الحياة في معظم مغامراتي.. لكني لم أصل أبدا إلى درجة لجوء الناس إلي لحل قضية معقدة غريبة كهذه.. أخشى كثيرا أن أخذلكما.

نظرات الأمل في عينيهما وفي عيني (أنمار) تحديدا.. نظرات الخوف في عيني بالمقابل.. هل أذهب؟!.. سأرتجف قلقا ورعبا دون شك.. وربما سأقع في ورطة حقيقية تنهي مستقبلي لو كشف رجال الشرطة وجودي هناك!!!.. هل أنهض من مكاني وأنسى كل شيء.. يبدو الأمر مغريا للغاية.. المشكلة أن الشهامة صعبة جدا وتعني دوما أنك ستضحي بالكثير.. وأنا أضحي بحياتي ومستقبلي هنا.. كما أنني لست شجاعا.. وكلما تقدم بي العمر أجد نفسي أزداد جبنا.. لكني رغم ذلك.. احم.. احم.. وافقت!!!.. لم أملك الشجاعة لأرفض أمام نظرات الفتاتين واللهفة الواضحة في ملامحهما.. تناقض بشري غريب لكن هذا ما حدث بالفعل.

لاحظت انفراج أساريرهما وأنا أومئ برأسي إيجابا وأقول:

-حسنا.. سأذهب معك يا (أنمار).

نظرت إلي (أنمار) بامتنان شديد.. حسنا.. على الأقل لن أكون وحيدا هناك وإن كانت الصحبة الآدمية من فتاة خائفة تعتمد علي تماما.. و.. نهضنا جميعا.. وودعنا (حنان) كونها ستسافر صباح الغد.. ولم تفُتني نظرات الارتياح الواضحة عليها كونها ستترك كل شيء على عاتقنا.. ثم اتفقت مع (أنمار) على الذهاب معها إلى الشاليه عصر الغد.. سيكون علينا أن نتواجد بالقرب من جثة في طريقها إلى التعفن كونها ظلت هناك منذ أكثر من أسبوعين.. لكن.. لا يوجد حل آخر.

عدت بعدها إلى شقتي.. وألقيت التحية على جدتي التي كانت مع الخادمة في المطبخ تعد معها وجبة العشاء.. ثم ذهبت لغرفتي لتبديل ثيابي ومن ثم الجلوس قرابة نصف الساعة أقرأ أحد الكتب الطبية.. قبل أن أخرج بعدها إلى الصالة على صوت جدتي وهي تناديني لتناول العشاء.. رحنا نأكل بهدوء جميل وصوت التلفزيون يشق الصمت المطبق على المكان.. ذهني مشغول تماما بمغامرة الغد الموعودة.. أسترق النظر إلى جدتي التي كبرت وباتت تشعر بشيء من التعب بسبب وقوفها لفترات طويلة في المطبخ رغم تحذيراتي ورجائي المستمر لها أن تنتبه لنفسها وأن الخادمة قادرة على فعل كل شيء بنفسها.. لا أعرف كيف سيكون العالم من دون جدتي.. حقا لا أعرف.. و:

-(خالد).. أعلم أنني سألتك كثيرا.. وأنا أكرر سؤالي مرة أخرى لأن إجاباتك ليست مقنعة يا ولدي.. لماذا لا تتزوج؟ !!.. أريد أن أفرح بك.. أريد أن أطمئن عليك.. لا أتخيل فكرة أن تعيش وحيدا بعد وفاتي.. فأنا لن أعيش طويلا.

قلت بابتسامة عريضة محاولا أن أوحي لها أن الأمور طيبة:

-أطال الله بعمرك يا أمي.. المشكلة أنني لم أجد ابنة الحلال حتى الآن.. كما أنني مشغول تماما في دراستي كما ترين.. سأظلم زوجتي كثيرا لو تزوجت في هذا الوقت.. ستحتاجني كثيرا أثناء تواجدي المستمر بين الكلية والكتب.. دعك من فترة التدريب في المستشفى بعد تخرجي.. ستكون فترة صعبة جدا.. والواقع أن....

خرست فجأة.. كنت سأتحدث عن حبيبتي التي رحلت منذ سنوات.. وكيف أنني سأظل مخلصا لها إلى الأبد حتى وإن لم تعد.. كنت سأتحدث أيضا عن التجارب المخيفة التي عشتها في حياتي والتي جعلتني أكره العالم بأكمله وأنطوي عن الجميع.. إلا أنني تداركت نفسي سريعا.. فجدتي لا تعلم شيئا عن الجانب الآخر من حياتي.. حتى الخاتم الذي ارتديته لفترة طويلة إخلاصا لحبيبتي قد قمت بخلعه.. لأن جدتي كانت تختلس النظر إليه وتظن أنني أحب فتاة ما وسأطلب يدها قريبا.. فلم أرغب بجعلها تنتظر شيئا لن يحدث ([3]).

المهم أنها ظلت تنظر إلي منتظرة أن أكمل كلامي.. لكني هززت كتفي بما يعني أن لا شيء عندي لأضيفه.. فابتسمَت بحزن وكأنها قررت أن ترجئ هذا الكلام لوقت آخر.. إنها تتحدث عن زواجي كثيرا مؤخرا.. وأنا لا زلت عند رفضي لأسباب تحدثت عنها في أكثر من مناسبة من مذكراتي.. كم أحبك يا جدتي وأحب اهتمامك بي.. حقا لا يوجد في الدنيا أجمل من علاقة الإنسان بجدته.. خاصة لو كان يعيش معها في بيت واحد.. فالجدة امرأة شعرها من فضة.. وقلبها من ذهب!!!.

يوم (السبت).. اليوم المنتظر.. أتذكر أنني اتصلت ب. (أنمار) في الرابعة عصرا وقبل موعدنا بحوالي ساعة.. فأبلغتني أنها ستنتظرني عند السوق المركزي لمنطقة (مبارك الكبير).. ومن ثم ستركب معي هناك لنذهب معا إلى ذلك الشاليه.. سألتها عن أهلها.. لكنها أخبرتني ألا أقلق بشأن ذلك.. فالقضية أهم بكثير من خداع أهلها والخروج مع شاب دون علمهم.. نحن نتحدث عن جريمة قتل وإن كانت بالخطأ.

في الموعد المحدد.. كنت مع (أنمار) في سيارتي متجهين إلى

ذلك الشاليه.. حيث حاولنا أن نقتل التوتر الذي خيم علينا

بالحديث حول الدراسة في كلية الطب وهمومها.. إلى أن وصلنا أخيرا إلى منطقة (الجليعة) والساعة لا تتجاوز الرابعة والنصف مساء.. رحنا بعدها نجول في أنحاء المنطقة قرابة نصف الساعة أو ربما أكثر قليلا.. (أنمار) متحفزة تماما وهي تنظر إلى الشاليهات واحدا تلو الآخر.. إلى أن هتفت فجأة بانفعال واضح:

-هذا هو.. هذا هو.. يا إلهي.. إنه هو!!!!.

نظرت إلى الشاليه بتمعن.. إنه قديم بالفعل ويبدو مهجورا تماما.. دخلت بسيارتي عبر بوابته الحديدية الصدئة المفتوحة.. لا أنكر شعوري بالارتياح وأشعة الشمس تنير المكان بأكمله.. لكن المساء لن يتأخر كثيرا.. أمامنا أقل من ساعة قبل أن يحل الظلام.. ترجلنا من السيارة لنتجه ناحية باب الشاليه.. و(أنمار) تمشي بجانبي شاعرة بشيء من الاطمئنان كونها تمشي مع رجل وتحتمي به.. وإن كان هذا الرجل أجبن منها.

وصلنا إلى الباب لنجده مواربا قليلا.. دفعناه ببطء شديد لنسمع صوت الصرير المخيف.. لو حدث هذا ليلا لعدْت إلى سيارتي وابتعدت كالمجنون.. سكون غريب يخيم على المكان.. أنظر

إلى صالة الشاليه الرئيسية بشيء من الخوف.. قطع أثاث قديمة متروكة بإهمال.. منضدة في منتصف الصالة.. يبدو أنها المنضدة ذاتها التي اصطدمت بها (أنمار) حين هربت من ذلك الشاب.. مهلا.. إن جثته موجودة هنا منذ أكثر من أسبوعين.. أليس من المفترض أن تفوح رائحتها؟ !!.. أنا لا أشم أي رائحة على الإطلاق!!!.

توجهنا بعدها بتوتر شديد حيث يفترض أن تكون الجثة.. لا أعلم لماذا طرأت في ذهني أفلام الموتى الأحياء وأن الجثة المتعفنة ستنهض وتهجم علينا.. بالطبع.. الخيال الخصب يلعب دوره مع الجبناء.. لكن.. انهار هذا الخيال فجأة مع نقطة هامة جدا طرأت في ذهني حال دخولي المطبخ.. فنحن لم نرَ سيارة (جابر) في الخارج!!!.. من المفترض أن تكون سيارته قابعة هناك بعد أن قتلته (أنمار).. أين ذهبت السيارة؟!.. دار هذا التساؤل في ذهني لحظة دخولنا المطبخ لأجد المكان خاليا تماما.. هذا متوقع تماما مع اختفاء سيارته.. نظرت إلى (أنمار) مستفهما وأنا أنقل لها تساؤلاتي تلك.. لكن.. بدا واضحا أن مفاجأة اختفاء الجثة قد صعقتها وأنها لم تفكر بأمر سيارة (جابر) التي اختفت بدورها.. فنظرت إلي وهي على وشك البكاء.. إنها تعلم الآن أن أحدهم - الشرطة ربما -قد انتشل الجثة وأخذ السيارة.. وهذا يعني أن الأمر أصبح خارج نطاق سيطرتنا.

لكن رغم ذلك.. دخلنا غرف الشاليه وبحثنا في كل مكان دون أن نعثر على أي شيء غير عادي.. يبدو أن دورنا قد انتهى هنا ولا بد من الخروج قبل أن يعثر علينا أحد.. نقلت خواطري تلك ل(أنمار) بصوت قلق.. فامتثلت لكلامي مباشرة وملامحها تشي بضياع واضح.. خرجنا من الشاليه لنركب السيارة ونبتعد أخيرا.

أعترف أننا لم نتنفس الصعداء إلا حين وصلنا إلى الشارع العام عائدين إلى منطقة (مبارك الكبير) حيث يفترض أن أوصل (أنمار) إلى السوق المركزي مرة أخرى لتركب مع صديقتها.. كنت طوال الطريق في حيرة شديدة من أمري.. هل كشف رجال الشرطة الأمر وأخذوا الجثة؟!.. من أبلغهم أصلا بوجود جثة في ذلك الشاليه المهجور؟!.. عندما طرح ذهني ذلك السؤال.. راودني شعور غريب لم أضعه في الحسبان.. فهناك احتمال لا بأس به أن الفتاتين تتلاعبان بي لسبب ما.. لكن.. لماذا تفعلان ذلك؟!.. ما الهدف أصلا؟!.

طردت هذا الاحتمال من ذهني مؤقتا.. ورحت أتساءل عن حقيقة (جابر) هذا.. هل هو قاتل متسلسل (Serial Killer) كما يقولون في الأفلام ولسبب ما يرغب بقتل الفتيات اللاتي يحملن نفس تاريخ الميلاد ويدرسن في كلية الطب؟!.. لا يمكن.. هذا مستحيل تماما.. فظروف لقائه بالفتاتين كانت مصادفة كما علمت منهما.. لكن لو كانت مصادفة.. كيف تتشابه الفتاتان بأكثر من أمر.. تاريخ ميلادهما.. تخصصهما الدراسي.. تفوقهما الواضح.. ثم لماذا يحتاج (جابر) أن يقتلهما معا؟!.. لماذا لم يأت بكل منهما إلى الشاليه على حدة ليقتلها؟!.. سيكون الأمر أسهل كثيرا حينها.

أسئلة كثيرة ظل عقلي يطرحها طوال الطريق قبل أن أنتفض بقوة وأقفز من مكاني بطريقة مضحكة لم تنتبه لها (أنمار) لحسن الحظ!!!.. فقد انفجرَت المسكينة في البكاء فجأة وبصورة أفزعتني كثيرا.. لكني تمالكت نفسي متفهما تماما ما تمر به بعد أن أدرَكَت أن أحدهم على علم بالجريمة.. وأعطيتها علبة المحارم الورقية الموجودة في سيارتي لتمسح دموعها.. وحاولت مواساتها ومنحها بعض الأمل.. فأخبرتها أن أسوأ ما سيحدث هو أن تكشف الشرطة الأمر.. وسيعلمون حينها أنها قتلت (جابر) دفاعا عن النفس.. المشكلة الوحيدة هي الفضيحة ومواجهة والدها وأشقائها كونها خرجت لتقابل شابا في الشاليه.. وهو مأزق ليس بالهيّن وعلينا التفكير

بمخرج منه.

أوصلت (أنمار) أخيرا.. وعدت بعدها إلى الشقة والساعة تتجاوز السادسة مساء بقليل حيث جلست في غرفتي طوال الوقت أفكر بما حدث.. ثم.. أخرجت ورقة وقلما كحالي دوما حين أجد معضلة أعجز عن حلها.. وبدأت أضع على الورقة كل الخطوط العريضة والكلمات والمفاتيح الأساسية لهذا اللغز وعقلي مزحوم تماما حتى نسيت نفسي طوال ساعة كاملة.. قبل أن تطرأ في ذهني فكرة غريبة للغاية.. أن أبدأ من الصفر!!!.. ستفهمون ما أعنيه.

أمسكت بهاتفي النقال واتصلت ب. (أنمار).. لحظات وأنا أسمع هاتفها يرن.. لترد بلهفة:

-مرحبا (خالد).

قلت بشرود:

-آمل ألا يسبب اتصالي مشكلة.

زفرت بتوتر وهي تقول:

-أرجوك دعك من تلك الرسميات.. أخبرني.. هل توصلت إلى شيء؟؟!!.

قلت بلهجة غامضة:

- هناك شيء أريد التحقق منه.. لا تسألي عن السبب لأنني لا أعرفه بعد.. لكن الأمر يستحق التجربة.. أخبريني.. في أي مستشفى ولدت يا (أنمار)؟؟!!.

سكتت للحظات وكأنها تتذكر.. ثم قالت:

-مستشفى (.....).. لماذا تسأل؟!!.

رددت موضحا وأنا أفكر بعمق:

-إنك تتشابهين مع (حنان) في أكثر من نقطة.. تاريخ الميلاد.. التخصص في نفس المجال.. التفوق الدراسي الشديد.. لكن.. أول حادثة جمعت بينكما هي تاريخ ميلادكما بالطبع.. ربما كان هذا طرف الخيط الذي سيكشف لنا حل اللغز.. أخبريني.. هل تعرفين أين ولدت (حنان)؟!!.

كان جوابها سلبيا -وإن أبدت حماسها لفكرتي -فأقفلَت الخط لتتصل ب. (حنان) وتسألها.. و.. نعم.. تماما كما ظننت.. لقد اتصلت بي بعدها بدقائق قليلة لتخبرني أنها و(حنان) قد ولدتا في نفس المستشفى!!!.. عندها فقط تنهدت بارتياح شديد.. طلبت منها أن تلتقي بي غدا عند ذلك المستشفى للضرورة القصوى.. فعلى الأرجح لن تمنحني الإدارة أي معلومات دون وجود إحدى الفتاتين معي.. أعتقد أن الحل ينتظرنا هناك.. كيف؟!.. لا أعلم.. لكن الأمر يستحق التجربة.

في اليوم التالي.. التقيت ب. (أنمار) في قاعة استقبال المستشفى ذاته.. وهو مستشفى خاص شهير جدا بالمناسبة.. وقد تطلب الأمر بعض الوقت قبل أن تدلنا موظفة الاستقبال إلى المكان المطلوب للإجابة على سؤالي.. أتحدث عن إدارة المستشفى والقسم الخاص بتسجيل المواليد.. مواليد عام 1992.. لم يطل الأمر كثيرا.. خاصة بوجود (أنمار) صاحبة العلاقة.. فعلمنا منهم أن الفتاتين قد ولدتا في وقتين مختلفين من نفس اليوم وعلى يد نفس الطبيب.. هل يعني هذا شيئا؟!.. ربما.

سألت موظفة الاستقبال عن الطبيب.. فأجابت بأسف:

-المعذرة.. لم يعد يعمل معنا.. لقد ترك عمله هنا منذ سنوات طويلة.

سألتها بإلحاح:

-هل هناك أي طريقة للتواصل معه؟!.. أرجوك.. الأمر مهم للغاية.

كنت أقول هذا الكلام غير عالم ما سأقوله للطبيب أصلا إذا التقيت به.. إنني أطرق جميع الأبواب وأفكر بكل الاحتمالات فحسب.. هكذا خرجت من جميع المصائب التي واجهتها في حياتي تقريبا.. لكن.. هزت الموظفة رأسها بأسف وهي تعتذر.. لنتركها ونتجه إلى القاعة الرئيسية للمستشفى استعدادا للخروج ومحركات عقلي تعمل بكل طاقاتها.. حتى أنني توقفت وسط قاعة الاستقبال وأنا أنظر إلى الأرض وأفكر بعمق شديد أثار فضول (أنمار).. فسألتني عما أفكر به.. لكني لم أجبها.. بل توجهت مرة أخرى إلى موظفة الاستقبال وسألتها عن أقدم موظفي المستشفى.. الطريف أنها أشارت إلى سيدة كانت تمشي بالصدفة في القاعة الرئيسية متجهة إلى المصاعد.. إنها المقصودة إذا.. هذا رائع.. كان واضحا أنها من جنسية عربية.. وقد بدت لي موظفة إدارية.. عرّفتها بنفسي وكذبت عليها كذبة صغيرة حين أخبرتها أنني طبيب رغم أنني لم أتخرج بعد من كلية الطب كما تعلمون.. لكني أردتها أن تتعامل معي باحترام وجدية.. سألتها بابتسامة عريضة:

-المعذرة يا سيدتي.. هل تعرفين الدكتور (......) ؟!.. لقد كان يعمل هنا في فترة التسعينات.

لا يمكن أبدا أن تفوتني نظرة الذهول التي لمحتها في عينيها!!!.. وكأنني ذكرتها بأمر ما.. هذه السيدة تعرف شيئا بكل تأكيد.. ولم أخطئ.. إذ ردت بخفوت شديد:

-نعم.. كان يعمل هنا بالفعل وقد تم فصله منذ حوالي 14 عاما.

سألتها بلهفة وقد شعرت أنني أصبت الهدف:

-لماذا قاموا بفصله؟!.. ما الذي فعله بالضبط؟!.. أرجوك.. يهمني جدا أن أعرف.. ربما يكون مصير هذه الفتاة مرتبطا به.

قلتها وأنا أشير بيدي فعليا إلى (أنمار) وهي تنظر إلي دون فهم.. فقالت الموظفة:

-بسبب فضيحة أجهل تفاصيلها وقد تمكنت إدارة المستشفى من لملمتها قبل أن تنتشر.. هذا الكلام سري للغاية.. ولم أكن لأقوله لأحد لولا مرور سنوات طويلة على تلك الحادثة.. هذا كل ما أعرفه.. لكن.. لماذا تسأل؟!!.

قلت بصدق متجاهلا سؤالها:

-أرجوك ساعديني.. هل هناك أي وسيلة للوصول إلى ذلك الطبيب؟!!.

ردت بأسى:

-سمعت أنه توفي منذ بضع سنوات.. لكن.. أستطيع إيصالك إلى زوجته إن أردت.. أعتقد أن رقم هاتفها مسجل في دفتر الهواتف عندي في البيت.. لقد تحدثت معها آخر مرة منذ حوالي 3 سنوات.

شكرتها كثيرا وأنا أعطيها رقم هاتفي وأصر على الحصول على رقم هاتفها بالمقابل خوفا أن تنسى الأمر برمته فأذكّرها.. ثم خرجت مع (أنمار) وأبلغتها أنني سأتصل بها حال توصلي لشيء.. لنفترق أخيرا مع كلمات الشكر التي انهالت علي منها.. شعور جميل أن يعتمد عليك أحدهم وتصبح أمله

الأخير.

ذهبت بعدها إلى شقتي وغرقت بين كتب الدراسة معتذرا لجدتي عن تناول العشاء معها كوني لا أشعر بأي رغبة في الأكل.. إلى أن حان وقت النوم.. فأغلقت الكتب بشيء من الإرهاق.. وأطفأت الأنوار سوى تلك الإضاءة الخافتة التي لا أنام بدونها كوني أخشى الظلام.. ثم ارتميت على الفراش وتدثرت تحت اللحاف.. ليسرح ذهني لا شعوريا بتلك القصة ويسترجع أحداثها بالتفصيل!!!.. شاب طموح متفوق يدرس الطب في (إيرلندا) وينتمي لعائلة محترمة كما علمنا.. وقد تبدلت شخصيته تماما في ليلة وضحاها فتحول إلى قاتل.. هذا ما أكدته الفتاتان.. ماذا عن الفتاتين؟!.. (أنمار) و(حنان).. إنهما تتشابهان تشابها مريبا في نمط حياتهما.. نفس تاريخ الميلاد.. نفس الطبيب الذي أشرف على ولادتهما وقد تم فصله لاحقا كما علمنا لسبب مجهول.. والآن هما تدرسان الطب وكل منهما متفوقة في دراستها إلى درجة النبوغ.. مهلا.. يبدو أن موظفة المستشفى قد نسيت الاتصال بي لأحصل منها على رقم زوجة ذلك الطبيب.. وقد نسيت الاتصال بها بدوري بسبب الدراسة.. سأتصل غدا لأن الوقت تأخر.. والأفكار تذوب وتختلط ببعضها في رأسي.. يبدو أنني سأنام.. هذا واضح.. هذا وااا......

في اليوم التالي.. اتصلت بها حال استيقاظي من النوم وقبل ذهابي إلى الكلية.. وقد شعرت للحظة وكأنها تتنصل وتكذب علي حين أخبرتني أنها لم تعثر على رقم زوجة الطبيب!!!.. يبدو أنها ندمت على تسرعها بإبلاغي بما تعرفه.. لذا.. فعلت آسفا آخر ما أود فعله مع أي إنسان.. إذ هددتها بأنني سأفتح هذا الموضوع لوسائل الإعلام وأسبب فضيحة للمستشفى.. الأمر سهل.. بعض الاتهامات في مواقع التواصل الاجتماعي لينتشر الأمر بين الجميع في لحظات.. لكني أقسمت لها بالمقابل بأنني لن أفتح فمي ولن أتصل بها ثانية إذا أوصلتني بزوجة الطبيب لأطرح عليها بعض الأسئلة فحسب.. هذا كل ما أريده وسأنسى بعدها كل شيء.. لحظات من التردد.. قبل أن تمنحني الرقم بالفعل لأشكرها بعمق وأؤكد لها مرة أخرى أنني لن أسبب ضررا لأحد.

اتصلت بعدها بزوجة الطبيب مباشرة.. فظل الهاتف يرن لفترة طويلة قبل أن أتحفز فجأة عندما رفع أحدهم السماعة و:

-ألو

إنها هي على الأرجح.. ألقيت عليها التحية باحترام شديد وأنا أبحث عن طريقة مناسبة لأدخل في صلب الموضوع.. ثم:

-سيدتي.. المعذرة لهذا الاتصال.. اسمي (خالد).. إنني احم.. إنني طبيب.. هناك أمر هام للغاية أريد التحدث معك بشأنه.. إنه يخص زوجك رحمه الله.

بدا واضحا أنها كانت على علم باتصالي.. إذ يبدو أن تلك الموظفة أخبرتها بالأمر.. فقالت بضراعة:

-ما الذي تريده مني يا بني؟!.. إنني امرأة كبيرة في السن.. ولا أقوى على مواجهة المشاكل.

قلت باحترام شديد:

-أقسم لك يا سيدتي أنني شاب مستقيم لا أنوي الضرر لأحد.. لكن هناك قصة غريبة أمر بأحداثها حاليا.. وأعتقد أن لزوجك -رحمه الله- علاقة بالأمر.. أرجوك دعيني أتحدث معك لساعة من الزمن.. وأؤكد لك أنني لن أضايقك بعدها أبدا.. شرط أن ألتقي بك وجها لوجه.. فأمر كهذا لا يناقش عبر الهاتف.

ساد المكالمة صمت طويل وهي تزن الأمر برأسها كما يبدو.. قبل أن توافق بتثاقل وتردد واضحين.. لتنفرج أساريري وأنا ألقي عليها كلمات الشكر.. فاتفقت معها على زيارتها عصر اليوم حال الانتهاء من محاضراتي.. فالفضول كان يقتلني.. خاصة وأن اقترابي لحل اللغز جعلني في حالة عشق مع ذاتي.. تماما كما يتأثر أحدنا حين يحقق نجاحا ما.

ذهبت بعدها إلى الكلية لأقضي هناك ساعات طويلة مرهقة بين المحاضرات والكتب وبذهن مشغول بتفاصيل تلك القصة.. إلى أن انتهى كل شيء أخيرا لأخرج بعدها وأتجه إلى أكثر منطقة في (الكويت) أحاول تجنبها.. منطقة (حولي) التجارية المزدحمة دوما.. وإلى مكان شقة زوجة الطبيب في تلك العمارة السكنية القديمة حيث تطلب الأمر ربع ساعة تقريبا للعثور على موقف لسيارتي.. قبل أن أدخل العمارة أخيرا وأصعد إلى الطابق المطلوب.. لأجد نفسي أمام الشقة المطلوبة.. فطرقت الباب بأدب شديد ورحت أنتظر.

أسمع صوتا يسألني عن هويتي.. إنها زوجة الطبيب دون شك.. تنحنحت وأخبرتها باسمي.. لتفتح لي وإذْ بسيدة عجوز يتجاوز عمرها ال 60 عاما بكل تأكيد وقد بدا وجهها حزينا كئيبا وكأن الدنيا ضربتها من كل اتجاه وأخذت من صحتها ما أخذت.. رحبت بي بانكسار ودعتني إلى الدخول بعد أن عرفتها بنفسي.. ثم قادتني إلى صالة الشقة وطلبت مني الجلوس لتستأذنني الذهاب إلى المطبخ.. جلست في الصالة أنظر حولي بفضول.. إنها شقة صغيرة للغاية تحوي غرفة واحدة ربما.. الصالة كذلك صغيرة ملمومة تشعرك بالاحتواء الجميل.

لحظات قليلة لتعود السيدة وبيدها صينية صغيرة تحوي علبة عصير.. شكرتها كثيرا لضيافتها.. ثم قررت الدخول في الموضوع.. أخبرتها عن سبب زيارتي.. وعن الفتاتين وما تعرضتا له.. وأخبرتها أنني تتبعت حياتهما إلى أن وصلت إلى مكان ولادتهما في مستشفى (......).. لأكتشف أن الطبيب الذي أشرف على ولادتهما هو زوجها.. وقد فوجئت أنه فصل من عمله في منتصف التسعينات بسبب فضيحة حاولت إدارة المستشفى لملمتها كما علمنا جميعا.. فأدركت أن هناك لغزا ما يحيط بحياة ذلك الطبيب.. لغزاً ربما يجيب على أسئلة كثيرة تتعلق بهذه القصة الغريبة.

نظرت إليّ السيدة.. ثم اغرورقت عيناها بالدموع.. وقالت بحزن شديد خلع قلبي من مكانه:

- لقد توفي زوجي عام 2003.. وكنت أود أن أغلق تلك الصفحة إلى الأبد يا ولدي.. عموما.. سأخبرك بما تريد معرفته.. لكن أرجوك أن تتركني لحالي بعدها.. أنا امرأة بسيطة أعيش أيامي الأخيرة.. ولا أريد أن أتورط بأي مشاكل.

أجبتها بصدق أنني لا يمكن أبدا أن أضر امرأة بعمر جدتي.. وأقسمت لها إنني أفعل كل هذا من أجل إنقاذ الفتاتين من ورطة حقيقية.. لذا.. تنهدت تنهيدة طويلة حارة.. ثم نهضت من مكانها.. ودخلت غرفتها لتغيب دقائق طويلة اقتربت من ربع الساعة تقريبا.. كنت أسمعها وهي تفتح الدولاب ثم تعبث ببعض الأدراج وكأنها تبحث عن شيء ما.. قبل أن تعود إلى الصالة أخيرا وهي تمسك برزمة كبيرة من الأوراق بدت ثقيلة لامرأة في سنها.. نهضت لأساعدها.. لكنها أشارت بما يعني أنها لا تحتاج مساعدتي.. فاحترمت ذلك.. وجلست بمكاني وأنا أراقبها تمشي إلى أن جلست بصعوبة على الأريكة المقابلة لي.. ثم:

- يا ولدي.. ما ستقرأه في هذه الأوراق هو سر لا يعلمه أحد على الإطلاق.. لقد كنت معلمة في شبابي.. لذا فأنا على قدر لا بأس به من الثقافة وأعلم إلى حد كبير محتويات تلك الأوراق.. لكني آثرت أن أجلبها لك لتقرأها بنفسك وستجد فيها كل ما يتعلق بأسباب فصل زوجي من عمله..

تستطيع أخذها معك.. فقد ماتت هذه القصة منذ زمن طويل ولم يعد يتذكرها أحد.

شكرتها كثيرا وقلبي يخفق بعنف بعد أن استحوذ محتوى الأوراق على فضولي.. حتى أنني شعرت برغبة عارمة أن أقرأها هنا.. لكن هذا مستحيل بالطبع.. و.. لم أجد بعدها سببا لبقائي.. فنهضت وأنا أقول للسيدة بامتنان شديد:

-سآخذها معي.. أعدك أنني سأتخلص منها بأسرع وقت بعد قراءتها.. لكن.. المعذرة للسؤال.. كيف تعيشين لوحدك؟ !!.. ألا يوجد من يعتني بك؟!.. هل لديك أهل أو أقارب في (الكويت)؟!!.

أجابت ممتنة لاهتمامي بأمرها:

-أولادي يقيمون في بلدي.. وقد طلبوا مني كثيرا العودة.. لكني عشت في (الكويت) أكثر من 40 عاما من عمري ولا أحتمل فراقها.. كما أن أبنائي ميسورو الحال ويرسلون لي ما يكفيني من المال بصورة شهرية.. ثم أنهم يأتون لزيارتي بين الحين والآخر.. ولدي قريبة تعيش هنا أيضا.. وهي تزورني بدورها باستمرار وتتواصل معي دوما.

ابتسمت بود بعد أن اطمأننت عليها.. ثم ودعتها بلطف شديد واعتذرت مرة أخرى لإزعاجها وأنا أخرج حاملا الأوراق تحت إبطي.. لأعود إلى شقتي أخيرا حيث ألقيت التحية على جدتي وقبلت جبينها وأنا أعتذر منها عن تناول العشاء متعللا بعدم إحساسي بالجوع ووجود بعض الفروض التي علي إتمامها للغد.. لأتجه بعدها سريعا إلى غرفتي وأجلس على الفراش ممسكا بالأوراق باهتمام شديد لأبدأ بقراءتها وأغرق بتفاصيلها حتى نسيت العالم بأكمله من حولي.

هناك الكثير من الكلام العلمي البحت.. الكثير من المصطلحات الطبية التي جعلتني أنتفض وأنا أنتهي من كل صفحة.. هل يعقل أن يكون هناك شيء كهذا؟ !!.. هل يعقل أن يحدث هذا في (الكويت)؟!.. يبدو أن المفاجآت لن تتوقف أبدا في حياتي.. ويبدو أنه مقدرا علي أن أرى باستمرار من التجارب ما لا يصدقه عقل!!!.. لكن.. لا زالت هناك بعض الأمور المبهمة التي تحتاج إلى تفكير عميق لحل هذا اللغز.. ويا له من لغز!!!.. انتهيت من قراءة آخر ورقة لأكتشف أن الساعة اقتربت من منتصف الليل.. لست معتادا على السهر أيام الدراسة.. لذا ذهبت إلى الفراش بسبب محاضرتي الصباحية المبكرة.. وقد نمت مطمئنا رغم كل شيء.

في صباح اليوم التالي وأثناء توجهي إلى الكلية.. اتصلت بي (أنمار).. فأجبت على مكالمتها بتحفظ شديد.. وبدا لها وكأنني أعيش في عالم آخر.. حتى أنها سألتني بقلق عن سبب انقطاعي عنها طوال يومين منذ زيارتنا للمستشفى.. فقلت مغمغما:

-الواقع أنني وضعت يدي على طرف الخيط.. وأعتقد أنني قريب جدا من الحل.. فقط اتركيني ليوم أو يومين آخرين.. صدقيني قضيتك هي كل ما يشغلني حاليا.. وأظن أننا سنشهد مفاجأة هائلة!!!.

استأذنتها بعد ذلك لأغلق الخط وسط اعتراضها الشديد.. كانت تريد أن تعرف المزيد.. لكن.. لا وقت لدي للشرح.. فقد كان عقلي مشغولاً تماما بما قرأته في تلك الأوراق ولا زالت هناك تساؤلات كثيرة تحتاج إجابات.. كيف سأعثر على تلك الإجابات؟!.. كيف؟ ؟!.. كيف؟ !!.. ظللت أطرح ذلك السؤال على نفسي إلى أن انتهيت من محاضراتي وعدت إلى شقتي بذهن شارد غارق في التفكير.. ولا أنسى اتصالات (أنمار) التي لم تتوقف ومحاولاتها فهم ما توصلْت إليه حتى الآن.. لكني لم أخبرها بشيء سوى أنني كشفت الكثير لكن لا تزال هناك بعض النقاط غير

الواضحة.. أحتاج أن أكون وحيدا.. أحتاج المزيد من التفكير.

جلست ليلتها في غرفتي أقرأ تلك الأوراق مرة أخرى بدقة شديدة وأكتب الاستنتاجات واحدا تلو الآخر.. لم أشعر منذ زمن بالإرهاق الذهني كما شعرت هذه المرة.. لكن هذا البحث المضني يأتي بنتيجة في أغلب الأحوال.. لذا ظهرت ابتسامة مفاجئة على وجهي.. والمعلومات تتركب في ذهني لتتضح الصورة أخيرا.. يا إلهي.. هذا مذهل.. مذهل.. كتبت بحماس شديد بعض الكلمات بخط كبير للغاية دلالة الشعور بالرضا والفخر.. وكأنني أمام مسألة حسابية حللتها بنجاح.

نظرت بعدها إلى الساعة لأجدها تقترب من التاسعة مساء.. فأمسكت بهاتفي وبعثت رسالة نصية إلى (أنمار) أخبرها فيها أنني توصلت إلى كل شيء ويجب أن ألتقي بها غدا على أبعد تقدير.. لتنهال علي اتصالاتها مرة أخرى ورسائلها التي تطالبني بكشف ما لدي مع اعتراضها الشديد على خروجها المستمر لملاقاتي.. فليس من اليسير على الفتاة في مجتمعنا الخروج من بيتها متى ما أرادت كما تعلمون.. لكن أمرا كهذا لا يمكن مناقشته عبر الهاتف.. لذا كنت مصرا على لقائها وقد طمأنتها أن الأمور ستكون على ما يرام.

التقيت ب. (أنمار) في اليوم التالي مباشرة وفي مقهى (ستاربكس) منطقة (مشرف) ذاته.. حيث تواجدْت هناك قبلها واشتريت لها ال. (موكا) المثلجة ثم جلست أنتظر حضورها بثقة قلما أمتلكها.. إلى أن وصلت أخيرا.. كانت اللهفة واضحة على ملامحها.. إذ جلست وهي تنظر إلي بتوتر شديد دون أن تلمس كوب (الموكا) الخاص بها.. ثم.. قلت بصبر:

- أرجوك أن تستمعي إلي جيدا.. ما سأقوله لك لا يصدقه عقل.. ولو كنت تظنين أن كلامي مستحيل وضرب من الجنون.. فتذكري أن التشابه المريب في أحداث حياتك مع (حنان) مستحيل أيضا.. الأمر الذي يتطلب تفسيرا غير عادي بالمقابل.. حسنا.. لقد علمنا أنكما ولدتما على يد نفس الطبيب الذي قامت إدارة المستشفى بفصله لاحقا لأسباب لم نكن نعلمها.. وقد تتبعت ذلك الطبيب وعرفت أنه توفي منذ سنوات.. فالتقيت بزوجته وحصلت منها على مذكراته.. كنت أنا أول من يطلع على تلك المذكرات منذ وفاته.. فعرفت منها أن الطبيب قد تم فصله من وظيفته وحرمانه من ممارسة مهنة الطب بسبب تجارب سرية كان يقوم بها دون علم إدارة المستشفى مع زميل له مختص في جراحة المخ والأعصاب.. لقد.. لقد كانا يحلمان معا باستنساخ المخ البشري!!!!.

قالت (أنمار) بذهول شديد:

-استنساخ المخ؟ !!.. هذا مستحيل تماما يا (خالد).. مستحيل من الناحية العلمية!!.

قلت شأن من رأى من الغرائب ما رأى حتى لم يعد يفاجئه شيء:

-أعترف أن الأمر عسير التصديق.. وأدرك جيدا أن العلماء يظنونه مستحيلا.. لكن لا تنسي أن الاستنساخ نفسه كان مستحيلا في الماضي وسخر منه الكثيرون ([4]).. كل اكتشاف أو اختراع علمي يبدأ هكذا.. مجرد فكرة في الأذهان.. ثم تتطور إلى الأبحاث والدراسات.. إلى أن تتحقق أخيرا!!!.. لقد حصلت على دراسات وأوراق الطبيب الذي أشرف على ولادتكما وجميعها تؤكد أنه كان يجري أبحاثا مع زميل له متخصص في جراحة المخ والأعصاب لاستنساخ المخ البشري.. إذ كانا يشعران بالأسف الشديد على فقدان العالم لعقول عظيمة بسبب حالات الوفاة.. وقد طرحا سؤالا مهماً قرأته أكثر من مرة في تلك الأوراق.. ماذا لو قمنا باستنساخ مخ العالم العبقري (توماس

أديسون) ([5]) مثلا ونقلناه إلى شاب في العشرين من العمر؟!.. سيتعايش هذا الشاب مع التكنولوجيا الحديثة وستتسع مداركه وآفاقه دون شك ليأتي لنا بنظريات علمية جديدة واكتشافات مبهرة قد تغير وجه العالم بأكمله.. ومن هنا انطلق الطبيب في أبحاثه مع زميله.. إلى أن نجحا بعد سنوات باستنساخ جزء من مخه والذي يحوي كل ذكاءه ومعلوماته.. إذ قاما بأخذ عينة من خلايا الطبيب الجذعية ([6]).. وقاما بتطويرها وتأهيلها على أن تتحول إلى ذلك الجزء من المخ حين تنمو.. ثم حقن الطبيب والدتك ووالدة (حنان) أثناء فترة حمْلهما بكما -ودون علمهما- بخلية من دماغه وبأسلوب متطور للغاية ذكر تفاصيله في مذكراته.. لقد وضع الطبيب إرث علومه التي امتلأ بها مخه في رأسيكما.. وظل يتابع مرحلة حمل والدتيكما باهتمام شديد إلى أن تم كشف أمره من قبل مدير المستشفى الذي قام بفصله مع تقديم شكوى رسمية ضد زميله الذي تم فصله من جهة عمله أيضا.. ثم توفي الطبيب بعدها بسنوات بسبب عامل السن.. فلم يعرف أحد ما آلت إليه تجاربه.. ليصبح الأمر في طي النسيان.. أما أنت و(حنان).. فقد عاشت كل منكما طفولة عادية جدا إلى أن كبرتما.. حينها فقط بدأت تظهر عليكما علامات النبوغ والعبقرية في علم الأحياء وأصبحتما تسبقان جيلكما بكثير.. لأنكما تحملان بالأصل ذكاء ومعلومات الطبيب العبقري الذي أشرف على ولادتكما.. (حنان) لم تخبرني إن كان نبوغها قد ظهر متأخرا كما حدث معك.. لكني أعتقد أن هذا ما حدث معها أيضاً؟!.

لم تنطق (أنمار) بكلمة.. بل ظلت تحدق بي ببلاهة لا ألومها عليها.. ثم.. سألتني بشك:

-(خالد).. هل تعبث معي؟!.

قلت ببساطة:

-هذا ليس كلامي.. كل ما قلته لك مكتوب في مذكرات الطبيب!!!.

ردت مستنكرة:

-أعترف أن (حنان) أخبرتني أن نبوغها قد ظهر في وقت متأخر بالفعل.. أتذكر ذلك الآن.. لكن كلامك غريب جدا لا يصدقه عقل.. ثم لماذا لم يظهر النبوغ في طفولتنا طالما أن الطبيب استنسخ جزء من مخه في رأسينا قبل ولادتنا كما تقول؟ !!.. وكيف لم نأخذ منه سوى علومه؟!.. لماذا لم نأخذ منه سلوكه وذكرياته بالكامل؟!.

قلت باهتمام شديد:

- لاحظي أن خريطة عمل المخ معقدة جدا.. وليست كخريطة الجينوم البشري ([7]) التي تم اكتشافها في أواخر التسعينات.. إذ لا يعرف العلماء حتى الآن مركز الذاكرة عند الإنسان.. المكان الذي يحوي كل ما تعلمه وما يعرفه.. ومعظمهم يرجح أن الذاكرة أصلا ليست شيئاً ينبع من مركز بعينه.. وإنما هي خلاصة تآزر وعمل مجموعة من أجزاء ومراكز المخ في آن واحد.. لكن يبدو أن الطبيبين قد اقتربا كثيرا من الحل..

واكتشفا منطقة محددة في المخ ([8]) هي التي تحمل ذكاء الإنسان وعلومه.. ومن ثم قاما باستنساخها من مخ الطبيب الذي أشرف على ولادتكما والذي أحمل مذكراته معي الآن.. أتوقع أنهما فعلا ذلك دون علم والدتيكما.. لهذا احتفظت أنت و(حنان) بشخصيتيكما المستقلتين وأنوثتكما.. هل فهمت الآن؟!.. ما أخذتماه من الطبيب هو ذكاؤه والجانب العلمي من مخه فقط كما قلت لك وليس ذكرياته الشخصية.

قالت (أنمار) فجأة بحدة:

-(خالد).. ما علاقة كل هذا بذلك اللعين (جابر) الذي حاول قتلنا؟!!.

أكملت متجاهلا سؤالها تماما:

-أعيد وأكرر.. ما أقوله لك مكتوب في أوراق الطبيب الذي أشرف على ولادتيكما.. بل وذكر اسميكما في أبحاثه بعد ولادتيكما بأيام قليلة!!!.. لقد ظل يترقب أن تكبرا بالسن ليرى إن كانت تجربته تلك ستنجح وإن كنتما ستصبحان نابغتين في دراستكما كما كان هو.. لكنه فُصل من عمله بعد أن اكتشف مدير المستشفى تجاربه غير القانونية تلك.. ليموت بعدها بسنوات قليلة بسبب عامل السن.. وقد نجحت إدارة المستشفى في لملمة القضية والسيطرة عليها قبل وصولها لوسائل الإعلام كما هو واضح.. أما الطبيب الآخر فلا أعلم ما حدث له بعد فصله من جهة عمله أيضاً وإن كان لا يزال حيا يرزق أم لا.. بالمناسبة.. لقد علمت منك أنك أصبت بنوع من النبوغ المتأخر في دراستك الثانوية.. تماما كما حدث لـ(حنان) على حد قولك.. أخبريني.. هل عانيت بالمقابل شيئا من الصعوبات في التعليم بمرحلة الطفولة؟!.

نظرت إلي بعينين متسعتين.. و.. قبل أن تسألني عن كيفية معرفتي بالأمر.. قلت بثقة:

-لقد كانت هذه النقطة مذكورة في مذكرات الطبيب وأبحاثه.. السبب هو أن الجزء المستنسَخ من خلايا مخه قد وجد صعوبة كبيرة في الالتئام والتأقلم مع مخ كل منكما كونه جسماً دخيلاً على جسديكما.. تماما كما يحدث حين نجري عملية نقل قلب.. إذ يتطلب الأمر بعض الوقت كي يصحو المريض ويعود لحياته الطبيعية بعد فترة التأهيل.. لكن لا شك أن عملية استنساخ المخ -أو فلنقل جزءاً منه كما فعل الطبيب معكما -أصعب كثيرا من عملية نقل قلب أصبحت سهلة نسبيا في زماننا الحالي وتمارس في العديد من المستشفيات.. لذا أعتقد أن مخك لا يزال في مرحلة الالتئام ولم يتعافَ كلياً رغم كل هذه السنوات.

كانت لا تزال تستمع إلي غير مصدقة.. لذا لم تعلق على كلامي إطلاقا.. فأكملت مبتسما:

-وربما ما ستسمعينه مني الآن سيسرك كثيرا يا (أنمار).. وقد يكون أهم ما بهذه القصة الغريبة.. حسنا.. استعدي للمفاجأة.. ذلك الشاب المدعو (جابر) لا وجود له في واقع الأمر.. لا وجود له على الإطلاق.. إنه من نسج خيالك أنت و(حنان)!!!.

كان وقع كلامي قويا جدا عليها كما هو واضح.. لكني لم أمنحها الفرصة للتعقيب.. إذ ظللت أتحدث وأنا أخرج بعض الأوراق الموجودة من ملف الطبيب الذي جئت به معي وطلبت منها قراءتها وأنا أكمل:

-أنت و(حنان) تعانيان من الهلوسة ([9]).. وهي ذاتها التي كان يعانيها الطبيب ونقلها إليكما دون قصد.. إذ يبدو أن الجزء الذي استنسخه من مخه والذي يحوي ذكاءه وكل علومه.. كان يعاني من الهلوسة أيضا.. وربما هذا هو سر المقولة الشهيرة: ((بين العبقرية والجنون شعرة)).. لأن نفس الجزء من المخ الذي يحوي ذكاءنا ومعلوماتنا وقدراتنا على حل المشكلات.. قد يكون هو الذي يحوي أمراضنا النفسية بالمقابل.. وهذا يذكرني بقصة عالم الرياضيات الشهير (جون ناش) ([10]).. المهم أن هذه الهلوسة هي التي جعلت كل منكما تخترع شخصية وهمية.. وهي ذلك المدعو (جابر)!!.. كيف اخترعتما نفس الشخصية الوهمية وعشتما الأحداث التي صاحبَتها بتناسق غريب كما حدث في الشاليه؟!.. لأنك و(حنان) تحملان جزءاً من نفس المخ.. مخ

الطبيب.. أرجوك أن تنظري إلى تلك الأوراق.. ربما ستألفين الكثير من معلوماتها.. لا تنسي أنكما تحملان ذكاء ومعلومات الرجل الذي كتبها.. ولو تعذّر عليك فهمها الآن.. فستفهمينها لاحقا بعد أن يلتئم ذلك الجزء الذي استنسخه الطبيب في دماغ كل منكما بالكامل.. وهذا سيحدث حين تصلان إلى سن الحادية والعشرين على الأرجح كما تقول مذكرات الطبيب!!!.. إن أمامكما مستقبلا زاهرا في كلية الطب.. فأنتما تحملان جزءاً من مخ رجل عبقري بالفعل.

هزت رأسها وكأنها تنفض منه الكلام الذي سمعته للتو.. ثم قالت بعصبية:

-(خالد).. ما هذا الهراء؟!.. لقد كنت آمل أن تساعدني في محنتي لا أن تعقد الأمور وتخبرني بقصة لا يصدقها عقل.. لقد تحدثت مع (جابر) وخرجت معه بنفسي.. وكذلك فعلت (حنان).. هل تريد أن تخبرني أنني كنت أتحدث مع الهواء.. وأنني كنت أتخيل كل مكالماتي معه عبر الهاتف؟!.. هل تريد أن تخبرني أنني تخيلت قصة حب طوال شهرين كاملين؟!.. هل أنت مقتنع بكلامك هذا؟!!.

قلت ببساطة غير مبالٍ لحدتها:

-نعم.. أنا مقتنع بكل كلامي.. الأدلة واضحة.. ولا ألومك في الواقع لعدم اقتناعك.. هكذا الناس دوما.. يرفضون تصديق أي معلومة تتنافى مع عقولهم.. وكأن عقولهم هي المقياس!!!.. لكنك ستبتلعين تلك الحقيقة شيئا فشيئا على كل حال.. تذكري أن التشابه بين حياتك وحياة (حنان) مريب بالفعل ولا يصدق.. أنتما ولدتما في نفس اليوم وعلى يد نفس الطبيب.. وقد ظهر نبوغكما الدراسي فجأة في المرحلة الثانوية.. ثم توجهت كل منكما لدراسة الطب.. والواقع أن هذه القصة تثير لدي تساؤلاً عن العالم الشهير (آينشتاين) نفسه.. لقد اتهمه أساتذته بالتخلف.. بل أن المسكين لم ينطق بجملة كاملة إلا في سن التاسعة ([11])!!!.. فهل قام أحد العلماء باستنساخ جزء من مخه في رأس (آينشتاين) كما حدث معكما؟ !!.. ربما.. ربما سبق أحدهم العالم بأكمله وتوصل إلى استنساخ الأعضاء البشرية -والمخ البشري تحديدا- منذ سنوات طويلة ودون علم أحد.. خاصة وأن أول من برزت لديه فكرة الاستنساخ هو نمساوي الأصل.. أي ليس بعيدا عن البيئة التي أنجبت (آينشتين)!!!.. لهذا سألتك منذ قليل إن كنت قد عانيت صعوبات في التعلم في مرحلة طفولتك.. وقد أجبتِ بالإيجاب وأكدت لي بنفسك أن (حنان) عانت نفس الصعوبات في طفولتها أيضا.

سألتني باستسلام:

-ماذا عن الشاليه؟!.. ما قصته بالضبط؟!.

قلت وأنا أشير إليها بإصبعي:

-لقد كان الطبيب وزميله يمارسان أبحاثهما في ذلك الشاليه.. الشاليه هو ملك لزميله الذي لا أعرف عنه شيئا بعد أن تم كشف أمره.. وقد قادتكما عقولكما إليه أثناء مرحلة الهلوسة.

ظلت تبحث عن مخرج لإيجاد ثغرة في قصتي.. فسألتني مرة أخرى:

-لماذا لم يستخدم فتاة واحدة لتجربته هذه؟!.. لماذا فتاتين؟!.

قلت وأنا أمط شفتي:

-للمزيد من التأكد فحسب.. كان يريد أن يرى نتائج تجربته على فتاتين كي يكون متيقنا من

النتائج.. من الواضح أن تجربته ناجحة.. فها قد التحقت كلاكما في كلية الطب.. وكلاكما ظهر عليها النبوغ والتفوق في مرحلة الثانوية.. وسيظهر نبوغكما بصورة أكبر وستفهمان كل علوم الطبيب وذكائه بعد أن يلتئم تماما ذلك الجزء المستنسخ من مخه وينسجم مع باقي أعضاء دماغيكما.

ظننت للحظة أنني انتهيت من كل التفاصيل.. لكني تذكرت نقطة هامة.. فأكملت بسرعة:

-هناك بعض الاختلافات في الأحداث الوهمية التي عاشتها كل منكما.. فقد ظننت أنك التقيت ب. (جابر) في مطعم (تشيليز).. في حين ظنت (حنان) أنها التقت به في مجمع (المارينا).. هناك اختلاف أيضا بكيفية قدوم كل منكما للشاليه.. بل وأعتقد أن هناك اختلافا أيضا بما رأته كل منكما أثناء محاولته لقتلكما.. ولو تناقشت مع (حنان) في تفاصيل تلك الليلة المخيفة فستلاحظين أن كل منكما قد رأت شيئا مختلفا.. لماذا اتفقتما على رؤية ذات الشخص (جابر) واختلفتما في بعض التفاصيل؟!.. لا أعلم.. لا شك أن هناك تأثيرات مختلفة في دماغ كل منكما على ذلك الجزء المستنسَخ.. ما نوع الاختلاف؟!.. لا أعرفه أيضا مع الأسف.

كان ما ذكرته لها كثير.. كثير جدا.. أعترف بهذا.. لذا ساد المكان صمت طويل.. وراحت (أنمار) تنظر إلي وعقلها يبحث عن رد يفند قصتي المحكمة.. لكني كنت واثقا من استنتاجي.. سألتني بعدها بقلق:

-ماذا سيحدث الآن؟!!.

قلت بحماس:

-يجب أن تفرحي أولا أن (جابر) هذا لا وجود له.. أي أنك لم ترتكبي أي جريمة قتل.. ويجب أن تفرحي أكثر لأنك الآن تملكين معلومات وذكاء رجل عبقري.. فتستطيعين الوصول إلى أعلى المستويات في تخصص أمراض النساء والولادة كما تخصص هو.. لكن عليكِ التخلص من الهلوسات التي نقلها لكِ.. والواقع أنني أجهل كيف سيتم ذلك.. إنها مشكلة عليك أنت و(حنان) مواجهتها.. ربما ستجدان لها علاجا في المستقبل.. من يعلم.

سكت قليلا لأكمل:

-المهم الآن.. تستطيعين إبلاغ (حنان) بكل شيء.. وتستطيعان الاحتفاظ بهذا السر إلى الأبد إن أردتما -وهذا ما كنت سأفعله لو كنت مكانكما -أو أن تأخذا تلك الأبحاث وتنشراها في كل مكان.. لكني أنصحكما ألا تفعلا ذلك كي لا تتحولان إلى فئران تجارب.. تستطيعان بعد تخرجكما أن تعملا معا وتسدا كل النواقص في أبحاث ذلك الطبيب ليخرج البحث العلمي باسميكما بعد ذلك.. الأمر متروك لك ول. (حنان).. لكن أرجو ألا تمارسا نفس خطأ الطبيب وزميله.. ابتعدا تماما عن التجارب على العينات البشرية.

سكتت طويلا بعد كلامي هذا.. ونظرت إلي بشيء من التأثر.. هل تحرك شيء في أعماقها.. نعم.. إذ قالت موضحة:

-لقد كان ينتابني شعور غريب بالارتياح حين أرى (حنان).. لم أفهم هذا الشعور ولم أعره أي اهتمام بسبب ما مررنا به.. لكني الآن أفهم كل شيء.

قلت مبتسما:

-إنكما تحملان جزءاً متشابهاً تماما من المخ.. ربما يكون لهذا تأثير عاطفي ما.. تأثير أجهله.

كان هذا كل ما لدي.. لأفاجأ بعدها ب. (أنمار) وهي تمد يدها لتصافحني.. قبل أن تقول بتأثر شديد:

-لا أعرف كيف أشكرك يا (خالد).. إنك شاب رائع.. إنك.. إنك.. لا أعرف ما أقول.. لقد انتشلتني وانتشلت (حنان)من الضياع.. أشكرك من كل قلبي.. أنا ممتنة لك إلى الأبد.

صافحتها بدوري بحرارة.. قبل أن أودعها مع الوعد باللقاء في الكلية بطبيعة الحال.. أما (حنان) فقد اتصلت بي لاحقا وشكرتني كثيرا على ما فعلته.. لتتركني بعدها وحيدا.. كحالي دوما.. لكني كنت سعيدا للغاية كوني لم أخذل الفتاتين بعد طلبهما لمساعدتي.. و.. رغم سعادتي هذه.. إلا أنني ظللت حتى هذه اللحظة أفكر بغرابة تلك القصة.. وغرابة العلم نفسه وإلى أين سيأخذنا بقفزاته المخيفة.. ولا أعرف لماذا طرأ في ذهني ذلك السؤال فجأة: هل قفزات العلم التالية ستأخذنا إلى المستقبل.. أو ستكون انهيارا في أعماق الهاوية؟!.. لا أدري.. خاصة عندما نعبث في العقل البشري.. وما وراءه!!!.

ماذا يحدث في الشقة المقابلة؟!

شهر أكتوبر من عام 2010.. وقد خرجت منذ أسابيع قليلة من أجواء قصة (أنمار) و(حنان) وما صاحبها من نجاح أثلج صدري وأثار في نفسي تساؤلات وهموم لا تنتهي عن حقيقة هذا العالم من حولي.. كنت أعيش أجواء هادئة للغاية في تلك الفترة بعد سفر خادمتنا في إجازة قصيرة لبلدها.. وسفر جدتي بدورها إلى أقاربنا في (دبي) لتقضي معهم بعض الوقت.. لقد سافَرَت بعد إلحاح شديد مني.. إذ لم أرغب أبدا أن تقوم هي بأعمال البيت بدلا من الخادمة.. فقد كبرَت ولم تعد صحتها كما كانت.. خاصة وأنا أعلم جيدا أنها لن تستمع إلي لو طلبت منها ألا تبذل أي جهد وأن نعيش على أكل المطاعم طوال فترة غياب الخادمة.. والواقع أن تواجدي في الشقة وحيدا لم يكن يثير البهجة رغم عشقي للعزلة.. فالحياة دون جدتي لا قيمة لها.. إنها -أطال الله في عمرها- أهم ما في حياتي.. لذا كنت أنتظر موعد عودة الخادمة بفارغ الصبر والذي سيليه مباشرة عودة جدتي.

لم يكن هناك الكثير لأفعله في تلك الأيام.. أقضي معظم الوقت في الكلية.. فأعود في فترة الظهيرة لأتصل بأحد المطاعم وأطلب وجبة الغداء التي ألتهمها أمام شاشة التلفزيون.. ثم أجلس وسط الكتب والمراجع الطبية طوال اليوم.. قبل أن أذهب إلى المطبخ لأعد لنفسي وجبة عشاء خفيفة ألتهمها أمام شاشة التلفزيون مرة أخرى.. لأتجه بعدها إلى الفراش.. فينتهي يوم هادئ رتيب ويبدأ بعدها يوم آخر آملا أن يكون أكثر هدوءاً ورتابة!!!.. هذه هي الحياة البسيطة التي أحبها كثيرا وإن ظل عالم ما وراء الطبيعة يطل علي بين الحين والآخر ويقلب حياتي رأسا على عقب.. تماما كما حدث في قصتنا هذه!!!.

كان هذا مساء ليلة خميس.. حين جلست في صالة الشقة شاعرا بذلك الاسترخاء الجميل بعد أسبوع حافل بالمحاضرات والدراسة.. أتذكر أنني كنت أقرأ رواية طويلة شدت انتباهي كثيرا قبل أن أشعر بشيء من الإرهاق مع مرور الوقت.. ألقيت نظرة عابرة على الساعة فوجدتها تتجاوز العاشرة مساء بقليل.. فأغلقت الكتاب.. ونهضت ناحية باب الشقة حيث مفاتيح الإضاءة.. على أن أتجه بعدها إلى غرفتي وأتدثر تحت اللحاف لأعلن انتهاء ليلتي.. لكن.. تجمد إصبعي فجأة على زر الإضاءة حين وصل إلى مسامعي فجأة صوت مريب!!!.. أحدهم يهمس بعصبية واضحة.. نعم.. ولولا الصمت المطبق الذي يخيم على المكان بأكمله لما سمعت ذلك الهمس.. تقلصت أمعائي وأنا ألتفت حولي بقلق.. قبل أن أنتبه إلى أن الصوت يأتي من خارج الشقة.. اقتربت أكثر من الباب وألقيت نظرة عبر العين السحرية.. وإذْ برجل يتجاوز عمره الـ 40 عاما -على الأرجح- يقف عند عتبة باب الشقة المقابلة وينقل حاجياته إليها بمساعدة عاملين من جنسية آسيوية.. هل هو مستأجر جديد؟!.. هو كذلك بكل تأكيد.. لقد رحلت الأسرة الصغيرة التي كانت تقطن تلك الشقة منذ أسابيع قليلة.. لتظل مهجورة منذ ذلك الحين.. يبدو أن أحدهم سيسكنها الآن.

رحت أمعن النظر عبر العين السحرية بفضول.. لأنتبه إلى نظرات الرجل الحادة والصارمة.. يبدو أنه متعكر المزاج لسبب أجهله.. أسمعه بوضوح وهو يصف العاملين بالغباء ويطلب منهما بحدة هامسة أن يأتيا بالصندوق أولا قبل قطع الأثاث والحقائب.. فانصاعا إليه واتجها ناحية المصعد ليغيبا عن أنظاري سريعا.. في حين وقف هو منتظرا عودتهما مع ذلك الصندوق على أحر من الجمر كما بدا لي.

مضى وقت طويل نسبيا شعرت خلاله بشيء من الاستمتاع الطفولي وأنا أرى الرجل وأراقب تحركاته دون أن يعلم بوجودي.. ثم.. سمعت صوت باب المصعد يفتح.. ليخرج العاملان وهما يسحبان صندوقاً كبير الحجم بشكل ملحوظ.. كيف تمكنا من إدخاله وإخراجه عبر هذا المصعد الصغير؟ !!.. لا شك أنهما حشرا نفسيهما معه حشرا حتى يأتيا به إلى الطابق الثالث حيث شقتي وشقة ذلك الجار الجديد.

كان واضحا أن الصندوق ثقيل جدا.. فهما يسحبانه تارة.. ويدفعانه تارة أخرى بصعوبة بالغة إلى أن أخرجاه تماما من المصعد.. لا يمكن أن يكون بداخله تلفزيون مثلا.. فهو مستطيل ومربع بنفس الوقت.. ثلاجة؟!.. كنت سأخمن ذلك بالفعل.. لولا أنني رأيت ملامح الرجل المتوترة وهو ينظر حوله بقلق شديد وبشكل لا يوحي أبدا أن الصندوق يحوي شيئا عاديا.. مخدرات؟!.. زجاجات خمر؟!.. لا أعلم.. لكن لو كان الأمر كذلك فلن يختار شقة كهذه في بيت تسكنه أكثر من عائلة.. ولن يختار أصلا منطقة (الرميثية).. بل سيذهب إلى منطقة نائية لا تسكنها العائلات كي يمارس نشاطه المشبوه... خاصة وأن....

المعذرة لأنني لم أكمل عبارتي الأخيرة.. فقد تعرض تفكيري للشلل فجأة حين التفت الرجل بسرعة ناحية باب شقتي وراح يحدق في العين السحرية بطريقة جعلتني أنتفض بقوة.. يا إلهي.. لو ابتعدت الآن لعلم أن هناك من يراقبه.. لذا ظللت متسمرا في مكاني أنظر إليه دون أن أتحرك.. فاقترب كثيرا من باب شقتي حتى التصق به.. وراح يحدق في العين السحرية ويحاول التأكد إن كان هناك أحد يراقبه.. هل.. هل شعر بوجودي؟!.. كتمت أنفاسي تماما وشعرت باللعاب يمتلئ في فمي كما يحدث حين نتوتر.. قلبي بدأ يضخ الدماء أنهارا.. ما الضرر لو كشف الرجل وجودي؟!.. لا أعرف.. ربما لن يكون هناك أي ضرر سوى الخجل.. لكن هذا السكون العام أثار توتري كثيرا دون سبب واضح.. خاصة مع جُبني المعروف.

لحظات قليلة قبل أن يبتعد الرجل عن الباب أخيرا بشيء من الريبة ويلتفت ناحية العاملين مرة أخرى.. فما إن انتبه إلى أن الصندوق أصبح داخل الشقة.. حتى لانت ملامحه فجأة وقد تنفس الصعداء أخيرا.. فأصبح العاملان ينقلان باقي قطع الأثاث والحقائب بحذر أقل.. إلى أن تم كل شيء خلال نصف ساعة فقط.. هذا زمن قليل دون شك لتنقل حياتك بأكملها من مسكن لآخر.. يبدو أنه لم يأخذ معه الكثير لمسكنه الجديد.

شاهدت الرجل بعد ذلك ينقد العاملين مبلغا كبيرا من المال ويأمرهما بالانصراف في حدّة لا مبرر لها.. وما إن رحلا.. حتى التفت حوله مرة أخرى بحذر شديد وشك غير مفهوم.. ثم دخل شقته وأغلق الباب.. عندها فقط تنفست الصعداء وابتعدت عن الباب بدوري عائدا إلى غرفتي.. وإلى الفراش حيث نسيت كل ما يتعلق بتلك الحادثة وعقلي يغيب تدريجيا في عالم الأحلام.

مرت أيام قليلة على مغامرتي الصغيرة تلك دون أن ألتقي بجاري الجديد أو أصادفه إطلاقا.. وأعترف أنني نسيت كل ما يتعلق بشأنه.. إلا أن الأمر قد عاد إلى الواجهة بقوة في تلك الليلة حين كنت جالسا في الصالة أيضا كالمعتاد حيث انتهيت للتو من مكالمة جدتي عبر الهاتف والاطمئنان عليها.. ثم رحت بعدها أقرأ إحدى الصحف اليومية من خلال موقعها الإلكتروني وقد اندمجت تماما في قراءة تحليل اقتصادي حول مستقبل الخليج.. لأنتفض فجأة مع صوت طرقات الباب!!!.. هذا غريب.. لا أذكر أن أحدا زار شقتنا منذ زمن طويل جدا.. التفت ناحية الساعة لأجدها تتجاوز الثامنة مساء بقليل.. الطرقات تتكرر.. لا.. إنها الشقة المقابلة.. أحدهم يزور ذلك الجار المريب إذاً!!!.. توجهت بقلب يتواثب ككرة التنس إلى باب شقتي لأمارس فضولي البشري

بالنظر عبر العين السحرية مرة أخرى.. مهلا.. الزائر هو.. امرأة!!!.. نعم.. امرأة ترتدي ثيابا غربية الطابع.. لا أستطيع تبين ملامحها.. فهي تدير لي ظهرها وتواجه باب شقة جاري بطبيعة الحال.

كانت نحيلة بشكل يوحي وكأنها تحت ريجيم معين أو ربما تمارس رياضة ما.. شعرها ينسدل على كتفيها برقة.. يا إلهي.. هل هذه الشقة تدار للدعارة؟ !!.. لا.. لا يمكن.. فكما ذكرت.. لو كان الأمر كذلك لما استأجر شقة في منطقة سكنية وفي حي هادئ كهذا.. تدور تلك الخواطر سريعا في ذهني والمرأة لا تزال تطرق الباب بأصابعها بشيء من الحدة.

و.. أخيرا.. أجد الباب يُفتح ويخرج لها ذات الجار وقد نمت لحيته إلى حد ما.. يبدو أنه لم يحلقها منذ بضعة أيام.. نظرُت إليه ببغض وعداء لا مبرر لهما.. أما هو فقد فاجأتني نظراته للمرأة.. إذ كنت متوقعا أن يستقبلها بترحاب ويبتسم لها بود.. خاصة وأن هيئتها الخلفية توحي بأنها جميلة.. لكنه في المقابل نظر إليها بذهول واضح تشوبه العصبية.. وقال بصوت منخفض لكني سمعته جيدا:

-أيتها اللعينة.. كيف عرفت عنوان سكني؟!.. ماذا تريدين مني؟!.. لقد رفضت طلبك هذا 10 مرات سابقا!!!.

ردت بصوت أنثوي هادئ رقيق غير مبالية بحدته كما يبدو:

-هذا ما يثير المزيد من الشكوك حولك!!!.. سأظل أطاردك إلى أن أكشف الحقيقة.

نظر إليها بغضب.. ثم سألها مرة أخرى:

-كيف عرفت عنواني؟!.

ردت عليه بسخرية:

-نحن لا نعيش في (روسيا).. بل في بلد صغير.. لن تستطيع الاختباء إلى الأبد.

قال وهو يضغط على أسنانه:

-إنك تتجسسين علي إذاً!!.

قالت بتحد وكأنها بموقف أقوى:

-أنت ترتكب جريمة معينة لا أعرف كنهها حتى الآن.. لكني أعدك بأن أكشف السر.. لن أدعك تهنأ في حياتك أيها الحقير.

عندما قالت كلمتها هذه.. فعل آخر ما توقعته.. إذ دفعها بقوة وقد فقد تماما السيطرة على أعصابه كما يبدو.. فارتطمت المسكينة في باب شقتي محدثة ضجة لا بأس بها.. أي رجل حقير هذا الذي يتهجم على امرأة؟ !!.. و.. عندها فقط.. لم أحتمل.. ففتحت الباب مسرعا بالبيجامة التي أرتديها ونظرت إلى الرجل بغضب حقيقي.. يبدو أنني أكون مخيفا بالفعل حين أغضب.. فقد لانت ملامحه وبدا لي أنه توتر فجأة لوجودي.. لكني لم أجد الوقت لأقول شيئا.. إذ سرعان ما نهضت المرأة وهي تقف بوجه الرجل في شجاعة غريبة.. ثم قالت بصوت مرتفع نسبيا وهي تلهث:

-هل وصل بك الأمر إلى هذا الحد؟!.. إنك حقا جبان.. أقسم لك بأنني لن أتوقف أبدا إلى أن تعود الأمور إلى نصابها وأجعلك تدفع ثمن فعلتك باهضا.. تذكر كلماتي تلك.

شعرت أنني يجب أن تكون لي كلمة أيضا.. إذ وقفت إلى جانب المرأة وأنا أقول للرجل بصرامة واضحة:

-لا أعرف المشكلة بينكما.. لكني أعرف جيدا أن من يتهجم على امرأة سيقع في مأزق قانوني لا مخرج منه.. سأتصل بالشرطة الآن!!!.

تخاذل تماما أمام هذا التهديد ليقول مغمغما:

-المعذرة.. المعذرة.. لا أعرف ما جرى لي.. أرجوك تقبل اعتذاري.

قلت بنفس الصرامة وقد كان شعوري بالقوة ممتعا بالفعل:

-لماذا تعتذر مني؟!.. فلتعتذر منها هي!!!.

التفتَ إليها بحنق وهو يضغط على أسنانه قائلا:

-أعتذر.. أعتذر.. لكن لا تتدخلي بشؤوني أرجوك.. اتركيني في حالي.. هذا كل ما أطلبه.

قالها ليدخل شقته ويصفق بابها بقوة.. التفتُّ إلى المرأة لأتبين ملامحها أخيرا.. كانت في منتصف الأربعينات على الأرجح.. ترتدي نظارات خفيفة دون إطار وخيوط شعرها الفضية بدت تغزو رأسها كما هو واضح.. لديها أنف دقيق وذقن منمنم يوحي بجمال قديم لا زالت تحتفظ بالكثير منه.. لاحظْت كل هذا قبل أن تقول ممتنة:

-أشكرك.. أشكرك على ما فعلته.

ابتسمت وقد شعرت بالحرج بسبب ثيابي.. لقد تأملتها جيدا.. ولا شك أنها فعلت الشيء ذاته معي.. لذا قلت بعدها مباشرة:

-الدكتور (خالد سليمان ال).. أتشرف بمساعدتك.. فلا أقبل أبدا أن تتعرض امرأة لإهانة كهذه.

حسنا.. إنها كذبة صغيرة كما تعلمون وقد بت أمارسها مؤخرا حين تقتضي الحاجة.. لا أجد ضررا في ذلك كوني في طريقي لأحمل هذا اللقب.. إنها أفضل طريقة لأصرف نظرها عن البيجامة التي أرتديها.. المهم أنها مدت يدها لمصافحتي وهي تقول باهتمام:

-(أمينة ال...).. استشارية نفسية.

راحت بعدها تنظر إلي بفضول غريب ويدها لا زالت ممسكة بيدي.. فبدا وكأنها تفكر بأمر ما.. حتى أنها صمتت للحظة.. ثم قالت ببطء شديد:

-صدفة غريبة وطيبة يا دكتور.. هل نستطيع التحدث؟!.

قلت بخجل دون أن أفهم سبب حديثها عن الصدفة:

-أتشرف بدعوتك لشقتي.. لكني غير متزوج.. وأقيم وحيدا حاليا.. و....

لم أكمل عبارتي.. إذ قاطعتني بتهكم:

- فلتذهب تلك العادات البالية إلى الجحيم.. أنت دكتور.. وأنا استشارية نفسية.. نحن أناس متعلمون محترمون في النهاية ولن يعيبنا شيء لو تحدثنا قليلا في شقتك.

تنحنحت بحرج.. ثم أفسحت لها الطريق سامحا لها بالدخول.. الغريب أنها لم تتردد أبدا.. بل دخلت مباشرة وهي تنظر إلى صالة الشقة بشيء من الإعجاب كما بدا لي.. فاستأذنتها وذهبت إلى

غرفتي لأستبدل البيجامة بثياب لائقة.. ثم توجهت إلى المطبخ لإعداد كوبين من (النسكافيه).

دقائق قليلة قبل أن أعود وأجلس مقابلا لها في صالة شقتي وأنا أختلس النظر إلى دخان (النسكافيه) الذي يتصاعد من الكوبين في منظر محبب للنفس.. أبحث عن شيء أقوله.. شيء أقوله.. من المفترض أن تبدأ هي في الحديث.. لكنها لم تقل شيئا ولا أعرف السبب.. لذا سألتها بتردد:

- المعذرة.. ما هي المشكلة بالضبط مع هذا الرجل؟!.. هل.. هل هو.. احم.. احم.. زوجك السابق؟!!.

نظرت إلي باستعلاء واستنكار واضحين وهي تقول:

-زوجي السابق؟ ؟!.. بالطبع لا.. الموضوع أكبر بكثير.. إنني أحاول منذ مدة أن أفهم ما يجري.. لكن هذا الوغد يظل يبعدني بشتى الطرق ويخشى أن أكشف أمره.

سألتها باهتمام:

-هل لك أن تشرحي لي المشكلة؟!!.

قالت بهدوء وهي تزفر مفرغة كل انفعالاتها:

-في البداية أعتذر إن كنت قد سببت لك أي حرج.. وأكرر امتناني لك على وقوفك بجانبي.. لقد فكرت بعرض القضية عليك لعلك تتمكن من مساعدتي.. خاصة عندما أخبرتني أنك طبيب.. علما بأنه لم ينجح أي طبيب أو استشاري حتى الآن بتفسير ما حدث.

نظرت إليها دون تعليق منتظرا منها أن تكمل.. فابتسمت وهي تقول بشيء من الاعتذار:

- تبدو صغيرا في السن.. لكن لا بأس.. فالسن ليس مقياسا في الإبداع والتفوق.. المهم.. أنا استشارية نفسية.. وأملك مكتبي الخاص حيث أستقبل فيه جميع الحالات والاضطرابات النفسية.. المشكلة بدأت حين زارني جارك الوغد هذا منذ حوالي 5 شهور.. وأخبرني أن لديه شقيقاً جامعياً عاقلاً متزناً ناجحاً جداً في حياته.. لكنه أصيب بلوثة جنون مفاجئة ألغت عقله تماما وجعلته يتصرف كطفل رضيع!!!.

نظرت إلى السقف وكأنها تستذكر ما حدث.. ثم:

- كان ما أخبرني به غريبا للغاية ولا يصدق.. كيف يفقد رجل بهذا العمر عقله ويصاب بأسوأ مراحل التخلف العقلي ([12])؟!..

أمر كهذا يستحيل أن يحدث فجأة!!!.. لذا طلبت منه باهتمام شديد أن يسمح لي برؤية شقيقه والحكم على الأمر بنفسي.. فقادني إلى خارج الغرفة في صالة الاستقبال الخاصة بمكتبي لأجد شقيقه هناك بالفعل.. شاب في منتصف الثلاثينات من العمر يجلس على كرسي متحرك ويتصرف كأنه طفل رضيع عاجز حتى عن المشي أو استخدام يديه بطريقة سليمة كما يفعل الكبار.. منظر غريب لم أرَ مثله في حياتي.. خاصة وأن شقيقه لم يولد بهذه الطريقة.. بل ظهرت عليه بوادر التخلف والجنون في غضون أيام قليلة حسب ما يقوله جارك.. وقد طلب مني أن أمنحه إقرارا يؤكد أن شقيقه هذا متخلف عقليا فاقد الأهلية!!!.

قلت باستغراب:

-لا أفهم.. أيام قليلة يتحول فيها شاب عاقل متزن إلى مجنون لا يقوى حتى على المشي أو استخدام يديه كما تقولين؟!!!.. هذا مستحيل تماما إلا بتدخل جراحي والعبث في مخه.

ردت موافقة:

-تماما.. هذا هو اللغز الذي يكاد يصيبني أنا نفسي بالجنون.. لقد بحثت في كل المراجع العلمية دون أن أعثر على مرض واحد يسبب تلك الحالة.. أما بخصوص التدخل الجراحي فأؤكد لك أنه لم يحدث كما أكدت فحوصات الأطباء!!!.

قلت مفكرا محاولا تجاوز تلك النقطة مؤقتا:

-أعتقد أن جاري كان يرغب بشهادة تثبت أن شقيقه فاقد الأهلية كي يستخدمها أمام القضاء.. وربما يحاول حاليا الحصول على أكثر من شهادة كهذه حتى تدعم موقفه.. واضح أن الأمر يتعلق بميراث ما.

ابتسمت إعجابا وكأن استنتاجي كان عبقريا بالفعل.. ثم قالت:

-تماما.. هو ما تقول.. هناك بالفعل قضية ميراث طويلة الأمد بين الشقيقين مضى عليها بضع سنوات تجمدت فيها أموالهما تماما إلى حين البت النهائي فيها.. لذا أنا واثقة أن جارك الوغد هذا قد ارتكب جرما بحق شقيقه المسكين وأفقده عقله حتى يحسم الأمور لصالحه!!!.

قلت بأسف:

-لن تستطيعي اتهام جاري بشيء إلا لو عرفت كيفية ارتكابه للجريمة.. وإلا لا توجد جريمة هناك.

ردت بخيبة أمل شديدة:

-كلامك صحيح تماما.. لقد استدعتني المحكمة منذ فترة لسماع شهادتي كوني منحت جارك ورقة موثقة أن شقيقه فاقد الأهلية بالفعل.. فأخبرتهم بقناعتي التامة بشهادتي تلك وإن كانت الشكوك تملأ عقلي كوني أدرك جيدا -كما قلت مرارا -أنه يستحيل أن يفقد رجل بالغ عقله بهذه الصورة الغريبة في غضون أيام.. وقد أمر القاضي بعد ذلك بإجراء المزيد من الفحوصات على حالة الشقيق العقلية للمزيد من التأكد.. لتأتي النتيجة واضحة بعد بضعة أسابيع.. هذا المسكين مصاب بأسوأ درجات التخلف العقلي.. لم يضف تقرير المستشفى شيئا جديدا كما ترى.. فجميعنا نعرف هذا.. لكن كيييفففففف فقد عقله؟!.. لا أعرف.. لقد استشرت أكثر من محامٍ.. وأخبروني جميعا عدم جدوى تقديم أي شكوى تجاه جارك طالما أنني لا أعرف كيف فقد شقيقه عقله.. لا تتخيل الكم الهائل من الأطباء الذين لجأت إليهم علّ أحدهم يكتشف السر.. لكنهم أجمعوا أن شيئا كهذا غير موجود أصلا.. بل أن بعضهم ظنوا أنني أضحك عليهم وأضيع وقتهم.. إلا أنني لم أملك البال الرائق لأخرسهم وآتي لهم بشقيقه كي يرونه بأنفسهم.

لم يكن لدي شيء لأقوله.. لذا رحت أنظر إليها بشرود وهي ترتشف من كوب (النسكافيه).. أما أنا فقد تلاشى بخار كوبي تماما وفقدت كل رغبة بشربه.. و.. مهلا.. مهلا.. هناك نقطة تستحق التفكير.. قلت بلهفة:

-هناك احتمال طرأ في ذهني للتو.. هل من الممكن أن شقيق جاري هذا يتصنع الجنون مثلا؟!!.

ردت بسخرية مريرة:

-ولماذا يفعل ذلك؟!.. هل يعقل أن يتصنع الجنون لينهي حياته بأكملها ويحرم نفسه من ميراث

يستحقه؟!.. لقد كان شابا جامعيا يشغل منصبا وظيفيا مهما رغم أنه من عائلة ثرية تغري ثروتها بالكسل.. بل هذا ما حدث بالفعل مع الشقيق الأكبر (جارك) الذي لم يكمل تعليمه وظل معتمدا على إيرادات شركات والده.. إلى أن توفي الأب ودب الخلاف بين الشقيقين ليصل الأمر إلى المحاكم.. ثم أصيب الشقيق الأصغر بذلك الجنون الغريب الأول من نوعه في تاريخ الطب النفسي إن لم أكن مخطئة!!!.

مططت شفتي وأنا أهز كتفي كناية عن جهلي التام بإيجاد تفسير لهذه القصة الغريبة.. ثم.. تنحنحت السيدة (أمينة) وهي تقول:

-المعذرة.. لم أكن أريد أن أتهم نفسي بالتقصير كوني صادفت طبيبا ولم أخبره بتلك القصة عله يجد لها تفسيرا.. كان لا بد من المحاولة على الأقل.. يتعين علي الذهاب الآن.. فقد تأخر الوقت.

سألتها قبل أن تنهض:

-لكني لم أفهم حتى الآن.. لماذا جئت لزيارة جاري أصلا؟!.. ولماذا تهجم عليك؟!.

اكتسى الغضب ملامحها وهي تقول:

-لأنني أتصرف معه كإنسانة مسؤولة.. أشعر أن هناك جريمة ما لكني أعجز عن كشفها.. أنا لا أقبل بأنصاف الحلول وأدافع عن الحق دوما.. فهي مسألة مبدأ في النهاية.. لقد ظللت أطارد هذا الوغد لدراسة حالة شقيقه ومحاولة كشف السر.. فالإقرار الذي كتبته عن حالته العقلية -والذي ندمت على كتابته -لا يحتوي على الأسباب.. بل فقط التأكيد على أنه متخلف عقليا.. لكن جارك ضاق ذرعا بي ومن ملاحقتي المستمرة له.. فقرر في النهاية الانتقال إلى هذه الشقة هربا مني.. وهذا التصرف المريب لهو دليل واضح على ارتكابه لجرمٍ ما.. وقد بذلت جهدا خارقا في البحث عن عنوانه الجديد إلى أن عثرت عليه وجئت لأزوره محاولة أن أقنعه بضرورة دراسة حالة شقيقه مرة أخرى وأخرى.. لكنه ظل يرفض.. وهو لم يدفعني للتو ويهينني سوى لأنه يعلم جيدا أنني لن ألجأ إلى الشرطة.. فما أفعله ليس قانونياً.. لكن القانون والعدالة أمران مختلفان تماما.. وأنا أبحث عن العدالة.

ابتسمت بإعجاب شديد وأنا أقول:

-أنحني لك احتراما يا سيدتي.. أنت عملة نادرة في هذا الزمن.. ليتني أستطيع عمل شيء.. لكن واضح أن الرجل يعلم أن القضية ستحسم لصالحه قريبا.. لهذا فهو يتصرف بثقة مطلقة دفعته إلى إهانتك بهذه الصورة.

ابتسمت لكلماتي.. ثم صافحتني وهي تشكرني على استضافتي واستماعي لها رغم كل شيء.. قبل أن تخرج من شقتي أخيرا.. لكني -ومن باب الشهامة -رافقتها إلى سيارتها خوفا أن يتعرض لها ذلك الوغد.. ولا أنكر شعوري بالخوف أثناء عودتي إلى شقتي من أن يخرج ويلتحم معي في شجار سأكون الطرف الخاسر فيه بكل تأكيد كوني هزيل كالجرادة وغير معتاد على تلك الشجارات!!!.. لكن شيئا من هذا لم يحدث لحسن الحظ.

مرت بعدها الأيام القليلة التالية دون أن يحدث فيها ما يستحق الذكر.. فلم ألتقِ بجاري هذا مرة أخرى.. وبدا واضحا أنه متحفظ جدا ولا يرغب في الاحتكاك بأحد.. حتى أنني نسيت الموضوع برمته وقد غرقت حتى النخاع في فترة الاختبارات.. إلى أن عادت تلك القصة إلى سطح حياتي مرة أخرى بصورة مفاجئة.. فبعد أسبوعين تقريباً من لقائي بالسيدة (أمينة).. وفي ليلة هادئة معتادة..

كنت جالسا في غرفتي وحولي مجموعة من الكتب المفتوحة أثناء ساعات دراستي التي تلتهم كل وقتي تقريباً.. فبدوت وكأنني باحث ينتظر منه العالم اكتشافا خطيرا.. أتذكر أنني انتفضت فجأة على صوت طرقات الباب.. وهو أمر لا يحدث أبدا إلا حين أطلب وجبة من أحد المطاعم.

نهضت من مكاني مسرعا دون أن أجد الوقت للتفكير بهوية الزائر.. نظرت عبر العين السحرية.. وإذا بها هي نفسها.. السيدة (أمينة)!!!.. يااااه.. لقد نسيت كل ما يتعلق بشأنها.. خاصة وأنني لم ألتقِ بجاري هذا منذ ذلك الحين.. ترى.. ما الذي جاء بها مرة أخرى؟!.. طلبت منها أن تنتظر للحظة.. وهرعت إلى غرفتي لتبديل ثيابي.. ثم ذهبت لأفتح لها الباب.. تحية سريعة وتبادل عبارات المجاملة قبل أن أسمح لها بالدخول وأقودها إلى صالة الشقة.. و.. لا أعرف السبب الذي جعلني أقفل باب شقتي هذه المرة.. كأنني أخشى أن يقتحمها أحد!!!.

جلست مقابلها في الصالة وقد أحضرت لها علبة من العصير الجاهز.. من المؤكد أن زيارتها هذه لغرض ما وتختلف عن المرة السابقة التي كانت بالصدفة كما علمتم.. كنت أرى نظرات الخجل والتوتر واضحة على ملامحها.. وكأنها ستطلب شيئا صعب التنفيذ.. وبالفعل:

-(خالد).. أعتذر على تطفلي وزيارتي المفاجئة تلك.. لكن.. صدقني لا أستطيع أن أنسى ما حدث.. لقد ربح هذا الوغد القضية في الأمس.. وهو الآن يتحكم بكل الأموال.. ويعلم الله أي جريمة سيرتكبها بحق شقيقه.. أريد أن ننقذ هذا المسكين منه.. لكن لا يمكننا ذلك دون أن نعرف السر أولا.. السؤال الذي طرحته كثيرا دون أن أعثر على إجابته.. لماذا أصيب شقيقه بالجنون بهذه الطريقة؟!!!.

نظرت إليها بأسف كوني لا أستطيع أن أقدم لها شيئا.. وكدت أن أترجم نظرات الأسف تلك إلى كلمات.. لكن لساني انعقد فجأة وأنا أتذكر.. يا لي من غبي!!!.. لقد نسيت الأمر تماما.. أتحدث عن ذلك الصندوق الكبير الذي أدخله جاري لشقته في تلك الليلة.. هل لهذا الصندوق علاقة بالأمر يا ترى؟ !!.. كيف؟!.. لا أعرف.. نقلت خواطري للسيدة (أمينة).. فانتفضت بقوة.. وراحت تحدق بي بحماس وكأنني أنعشت الأمل في قلبها.. لتقول باهتمام شديد وتوسل:

-يجب أن نعرف ما يحويه الصندوق.. قد يكون هذا طرف الخيط الذي سيكشف لنا كل شيء.. مصير إنسان بريء معلق بنا.. أرجوك.. يجب أن نتحرك.. صدقني لو رأيت ذلك المسكين بنفسك لفعلت أكثر مما أفعله الآن!!!.

قلت متفهما:

-ولكن كيف سنكشف محتوى الصندوق؟ !!.. هذا ليس عذرا لتقديم شكوى ضد الرجل كما تعلمين.

ردت بقلق:

-في الواقع أنني جئت إليك لأطلب منك شيئا لم أعرف جدواه في بادئ الأمر.. لكن الآن -وبعد أن أخبرتني بأمر ذلك الصندوق المريب -أصبح طلبي حتمي التنفيذ.. (خالد).. يجب أن.. احم.. يجب أن ندخل شقة جارك دون علمه!!!.

اتسعت عيناي استغرابا لأقول بغضب وأنا أنهض من مكاني:

-ماذا تقولين؟!!!.. أنا لا أصدق أنك تفكرين بهذه الطريقة.. هذه جريمة حقيقية!!!.

ردت بتوسل وهي تشير إلي أن أجلس:

-أرجوك يا (خالد).. أعلم أن هناك احتمالاً لا بأس به أن ينكشف أمرنا.. ولكن هناك بالمقابل حقيقة واضحة.. وهي أن هذا المسكين قد خسر كل شيء.. نصيبه من الورث.. عقله.. حياته بأكملها.. فلا تبخل على شخص يحتاج من يساعده.. أنت طبيب وتمارس المهنة الإنسانية الأولى في العالم.. أرجوك.. هذا المسكين بحاجة إلى المساعدة.. ربما سنتمكن من إعادة عقله وحياته بأكملها إليه.. يجب أن نفعل شيئا.. قد يكون هذا أمله الأخير بعد أن حكم القاضي لصالح جارك وحسم القضية.

قلت بنفاد صبر:

-إن ما تطلبينه مستحيل يا سيدتي حتى لو وافقتك على ذلك.. فكيف سنقتحم شقة جاري وهو لا يغادرها تقريبا؟!.

ردت باهتمام وهي تحاول إقناعي:

-دعني أخبرك أولا أنني لم أتوقف يوما عن مراقبة جارك.. إنني أفعل كل شيء تقريبا لأبقي عيني عليه مستغلة صداقاتي مع أحد الضباط وقرابتي لبعض المسؤولين.. وقد علمت أن هذا الوغد ينوي بيع جميع عقاراته ومغادرة البلد كما هو مرجح.. يريد أن ينعم بحياة جديدة خارج (الكويت) تاركا بقايا جريمته (شقيقه) هنا!!!.. أرجوك.. أتوسل إليك.. إنني أحتاج مساعدتك.

قالتها وأجهشت في البكاء بصورة غريبة!!!.. بصراحة شعرت أنني نذل.. هذه المرأة تفعل كل شيء من أجل الانتصار لمبادئها.. أما أنا فأتصرف بأنانية واضحة.. لذا فقد أطرقت برأسي خجلا لتخاذلي.. ثم رفعت رأسي وأنا أخبرها بتوتر أنني موافق!!!.. لن أثرثر كثيرا حول شكرها وامتنانها لما سأفعله وأن العالم لا يزال بخير كون هناك أناس مثلي.. فالواقع أنني لم أستمع جيدا لعبارات الإطراء تلك لأنني كنت قد خططت قبلها للسؤال عن السيدة (أمينة) نفسها قبل أن أقدم على أي خطوة!!!.. نعم.. إنها استشارية نفسية ومن السهل السؤال عنها.. أريد التأكد فقط من أنها امرأة سوية.. فهناك احتمال لا بأس به أنها تمارس خدعة ما.. وقد تعلمت منذ زمن ألا أثق بأحد في هذا العالم سوى جدتي كما قلت مرارا.

كنت قد اتفقت معها على دخول شقة جاري بعد أيام قليلة من الآن.. خاصة حين علمت منها أنه سيضطر للخروج من شقته للتوقيع على عقد بيع إحدى عماراته وتوثيقها في المحكمة.. كيف عرفت السيدة (أمينة) بكل هذا؟ !!.. لأنها تراقب الرجل جيدا ولها أصدقاء من الضباط وبعض المسؤولين الذين ساعدوها كثيرا لكشف تحركاته.. هذا ما قالته.. لكني لن أصدق كلامها.. يجب التأكد من هويتها ومن صدق نواياها كما ذكرت.

خرجت من الشقة مساء اليوم التالي متجها إلى عنوان مكتبها في منطقة (السالمية) كما هو موضح في بطاقة عملها التي أعطتني إياها في لقائنا الأول.. صوت (عبد الحليم حافظ) يشدو بعمق في السيارة ليشعرني بأمان طفولي محبب من قسوة هذا الزمن.. المشكلة أنني حين أقود السيارة لا أغني فقط مع صوت جهاز التسجيل.. بل أؤدي الأغنية بصدق وكأنني في مسرح أمام جمهور!!.. لذا أقع أحيانا في حرج حين أكون متوقفا أمام إشارة المرور وأنتبه فجأة إلى أن الناس يراقبون أدائي للأغنية!!.. المهم أنني وصلت أخيرا إلى العمارة المقصودة حيث مكتب السيدة (أمينة).. مجمع فخم للغاية حديث البناء.. ركنت سيارتي واتجهت إلى الطابق الخامس حيث مكتبها الذي ألغى كل ذرة شك في قلبي من شدة فخامته.

استقبلتني سكرتيرة من جنسية عربية بابتسامة واسعة.. فطلبت منها لقاء السيدة (أمينة) لدقيقتين فقط.. بالطبع اعترضت في البداية كون السيدة (أمينة) لا تستقبل الناس بهذه الطريقة إلا من خلال جدول مواعيد منتظم.. لكني أخبرتها أنني حالة خاصة جدا.. فقط لتخبرها باسمي وستهرع إلى هنا بنفسها.. مطت شفتيها مستغربة من كلامي هذا.. فرفعت سماعة هاتفها لتبلغ السيدة (أمينة) كما يبدو.. أما أنا فالتفت لأجد عدداً لا بأس به من المراجعين.. أسرة صغيرة يعاني طفلها من شيء ما.. مراهقة تبدو عليها علامات الارتباك.. و.. كل ما يوحي أنك في عيادة نفسية.

لحظات قليلة قبل أن أجد السيدة (أمينة) أمامي تستقبلني بترحاب يشوبه استغراب واضح.. قلت لها هامسا مبررا زيارتي تلك:

-المعذرة.. كنت أريد التأكد فقط!!!.

سألتني بصوت هامس:

-تتأكد من ماذا؟!.

اللعنة.. لا أريد أن أخبرها أمام الجميع أنني جئت للتأكد من هويتها.. حتى لو همست لها بذلك فسيسمعني الناس بسبب الهدوء المخيم على المكان.. سيظهرني هذا بمظهر الأحمق.. تنحنحت لأقول بخفوت شديد:

-المعذرة يا سيدة (أمينة).. أردت فقط زيارتك.

قالت مبتسمة:

-مرحبا بك في أي وقت.. لكن المعذرة.. هذا مكان عملي وهناك مواعيد ومراجعات.

يا لي من أحمق.. لقد وضعت نفسي في موقف محرج بالفعل.. تنحنحت مبتسما وغمغمت بكلمات سريعة قبل أن أودعها وأخرج وسط نظرات استغرابها.. لا بأس.. لا بأس.. هذا أفضل بكثير من أن توقعني في مأزق قد يدمر حياتي.. فكل من التقيت بهم من قبل أوقعوني في مصيبة ما.. خرجت من مكتبها وقد اقتنعت تماما أنها استشارية نفسية بالفعل.

مرت بعدها الأيام القليلة التالية على نفس الرتم دون أي تغيير.. لكني كنت قلقا إلى درجة كبيرة من تورطي في هذه القصة.. حتى أنني فكرت أكثر من مرة في التراجع والاتصال بالسيدة (أمينة) للاعتذار عن استمراري في تلك المغامرة.. المشكلة أن ذلك الصوت اللعين في أعماقي ظل يذكرني أن تلك المرأة تحاول وحيدة أن تقف إلى جانب ذلك الشاب البائس الذي لم ألتقِ به حتى الآن وتضحي بالكثير من أجل إحقاق الحق فحسب.. على عكسي أنا الذي أفكر بالتهرب ونسيان الأمر برمته.. لذا.. تبخر ترددي شيئا فشيئا.. حتى كدت أرى البخار خارجا من عقلي.

بعد حوالي 4 أيام من زيارتي لمكتبها.. وبعد أكثر من اتصال هاتفي تم بيننا لترتيب اقتحامنا لشقة جاري.. كانت السيدة (أمينة) تطرق باب شقتي في التاسعة صباحا حسب الاتفاق.. كنت مستعدا تماما لحضورها.. لذا فتحت لها الباب سريعا وأدخلتها بقلق واضح كون موعد المغامرة قد حان.. و:

-هل خرج جاري؟!.. هل أنت واثقة من عدم تواجده في شقته الآن؟!.. و...

سكت وأنا أتذكر أمرا بالغ الأهمية.. كيف نسيت أن أسألها خلال مكالماتنا الهاتفية عن شيء بديهي كهذا؟ !!.. لقد أنساني القلق دون شك.. سألتها مرة أخرى قبل أن تجيب على سؤالي

الأول:

-كيف سندخل شقة جاري أصلا؟!.

ردت باهتمام:

-لقد خرج منذ ربع ساعة تقريبا.. كنت أجلس في سيارتي أراقب المكان بأكمله إلى أن رأيته يبتعد بسيارته.. أما عن كيفية اقتحامنا لشقته فسأدفع لأحدهم مبلغا فادحا من المال كي يأتي ويفتح لنا الباب.. إنه ينتظر في الأسفل!!.

سألتها باستغراب:

-ومن هذا الشخص؟!.

ردت بلا مبالاة:

-أحد فاتحي الأقفال الذين تملأ إعلاناتهم الصحف.. طلبت منه أن يأتي إلى بيتي ليفتح لي باب أحد الغرف التي أضعت مفاتيحها.. كنت أكذب عليه وأستدرجه طبعا.. فلا يمكن أن أطلب شيئا كهذا عبر الهاتف.. وعندما وصل.. أخبرته عن السبب الحقيقي لاتصالي.. في البداية رفض تماما كما هو متوقع.. بل وكاد أن يخرج غاضبا.. لكني عرضت عليه مبلغا يوازي ما يحصل عليه طوال عام كامل.. كما أخبرته أنه لن يتضرر أبدا.. فأنا وأنت من سنكون في الواجهة.. أما هو فسيفتح الباب ثم يذهب مباشرة في حال سبيله.. و.. أمام هذا الإغراء الشديد.. اقتنع أخيرا.. وها هو في الأسفل ينتظر.

شعرت بالانبهار كون هذه المرأة تفعل كل ما تستطيع لتنقذ ذلك الشاب المسكين.. لذا أومأت برأسي موافقا مبديا استعدادي للتحرك الآن.. فابتسمت بامتنان شديد.. وأخرجت هاتفها النقال لتتصل ب. (فاتح الأقفال) هذا.. لحظات قليلة قبل أن يفتح باب المصعد ويخرج منه رجل من جنسية عربية تبدو عليه ملامح القلق الشديد.. لم يقل كلمة واحدة.. بل اتجه إلى الباب حيث أشارت إليه السيدة (أمينة) ووضع شيئا ما في القفل ليفتحه لنا بطريقة فنية متمرسة.. فعلها بسرعة البرق دون أن يتبادل معنا كلمة واحدة.. لتمنحه مباشرة مظروفا يحوي رزمة من المال.. أخذه الرجال وخرج هاربا.. وكأنه لا يريد أي يتلوث بوجودنا!!!.

ما إن رحل ورأيت باب شقة جاري مفتوحا.. حتى أصبحنا فجأة أمام حقيقة مروعة مهما هيأنا أنفسنا لها سابقا!!!.. بل ورأيت القلق واضحا في عيني السيدة (أمينة) أيضا.. سنقتحم الآن شقة مواطن.. جريمة خطيرة يعاقب عليها القانون.. جريمة قد تقضي على مستقبلي!!!.. لا أعرف لماذا يرتجف جسدي بهذه الصورة.. الغريب أنها أمسكت بيدي وراحت تجرني جرا للدخول وهي تغمغم بصوت مرتجف:

-لن نتراجع الآن.. تذكر.. قد ننقذ في تصرفنا هذا حياة إنسان بريء.. ولو لم نعثر على شيء فلن يعلم أحد أبداً بأمر مغامرتنا الصغيرة.

حاولت أن أقنع نفسي بكلامها ونحن ندخل الشقة معا مستدلين بضوء الشمس الذي يتسلل من ستارة الصالة المفتوحة.. كانت الصالة تحوي أثاثاً بسيطاً للغاية مع كتب وصحف وأوراق رسمية لا أعرف محتواها مرمية بإهمال هنا وهناك بما يوحي أن جاري قد انتقل للمكان بصورة مؤقتة ولا يهمه كثيرا الاعتناء به.. أم أنه رجل فوضوي ربما.. لا أعلم.

نظرت إلى السيدة (أمينة) بتوتر وأنا أقول:

-الآن ماذا؟!

قالت وهي تنظر حولها كالمجنونة وكأنها تريد استغلال كل دقيقة من وقتها:

-دعني أبحث في الأوراق الموجودة هنا.. اذهب أنت لتبحث في الغرف.. حاول أن تعثر على أي شيء يثير الشك.

كدت أن أسألها لماذا لا تذهب هي إلى الغرف وتتركني في الصالة.. لكني لم أفعل بعد أن رأيتها تتجه سريعا ناحية الأوراق وتبحث باهتمام شديد في كل منها.. اللعنة.. أكره هذه الرجفة التي تصيب جسدي.. هذه هي مشكلتي الأزلية.. الخوف.. خاصة وأنني أرتكب جريمة في تلك اللحظة بتواجدي هنا.. لكني التقطت نفسا عميقا رغم كل شيء.. والتفت متجها إلى ناحية الغرف لأكتشف أن الشقة تحوي غرفتين أيضا.. تماماً كحال شقتنا.

دخلت الغرفة الأولى لأجد فراشا غير مرتب يتسع لشخص واحد.. مع تلفزيون صغير نسبيا وجهاز (لاب توب) ملقى على الأرض بإهمال.. وهناك دولاب صغير في زاوية الغرفة.. اتجهت إلى باب الدولاب وفتحته بتوجس.. لم أجد فيه سوى الثياب.. لا شيء مريب.. لكن.. هناك نقطة لا أفهمها.. إذا كان يريد بيع كل ممتلكاته ومن ثم الهجرة.. فلماذا انتقل إلى هنا وكل شيء يوحي أن انتقاله مؤقتا؟ !!.. هذه القصة تثير تساؤلات كثيرة بالفعل!!!.

ألقيت نظرة أخيرة على الغرفة قبل أن أخرج منها متجها للغرفة الثانية.. ولم يفتني أن ألقي نظرة سريعة أخرى على السيدة (أمينة) التي لا تزال تبحث في الأوراق باهتمام شديد أنساها وجودي.. هل اكتشفَت شيئا؟!.. كدت أن أسألها.. لكني لم أفعل.. لأننا تصلبنا في مكاننا فجأة ونحن ننظر إلى بعضنا!!!.. إذ سمعنا فجأة صوت باب المصعد يُفتح في الخارج!!!.

أكره شعور الخوف هذا حين تنهار معدتك على بعضها ويسقط قلبك بين قدميك.. أما السيدة (أمينة) فقد تصرفت بصورة عملية حين اتجهت بسرعة إلى النافذة.. ثم نظرت إلي بذعر.. نعم.. نظراتها أبلغ من الكلام.. لقد عاد جاري مبكرا لسبب ما وسيعثر علينا في شقته.. كنت ضائعاً تماماً وقد توقف تفكيري فجأة كحال من يتعرض لخطر مفاجئ.. ولم أبدِ أي ردة فعل إلا حين رأيت السيدة (أمينة) تهرع إلى المطبخ وهي تطلب مني بكلمات سريعة هامسة أن أختبئ بسرعة.. يا إلهي.. لقد وضعت نفسي في كارثة حقيقية!!!.

أسمع أحدهم يقترب من الباب ويدس المفتاح في القفل.. لتدب الحياة في جسدي وأهرب مسرعا لأختبئ في الغرفة الثانية.. الغرفة التي لم أستكشفها حتى الآن!!!.. سأختبئ هناك إلى أن أجد الفرصة المناسبة لأهرب من الشقة أثناء تواجد ذلك اللعين في الحمام مثلا.. آمل أن أكون محظوظا وأهرب دون أن يكشف أمري.. آمل ذلك.

المشكلة أنني حين دخلت الغرفة وأغلقت بابها خلفي.. اصطدمت بالظلام الدامس!!!.. هذه الغرفة تخلو من النوافذ كما يبدو.. رحت أتحسس مكاني في الظلام كما يفعل العميان.. أشد اللحظات رعبا هي حين تكون في مكان مظلم تجهل تفاصيله.. لكن الخوف من أمر كهذا ترف لم يكن متاحا حينها.. مهلا.. شعرت بقدمي تصطدم بشيء.. إنها.. إنها مجموعة من الثياب الملقاة بإهمال.. بعضها ذو رائحة كريهة جدا.. أسمع صوت ذلك الوغد وقد دخل شقته وهو يمشي عبر الممر المؤدي إلى الغرفتين.. هل هو قادم إلى هذه الغرفة؟ !!.. اللعنة.. لا أستطيع التوقف عن

الارتجاف.. مهلا.. خطرت في ذهني فكرة لا بأس بها.. أمسكت بقطعة ثياب ولففتها حول وجهي.. ثم اختبأت خلف الباب.. نعم.. سأدفعه بكل قوتي حال دخوله مستغلا عامل المفاجأة.. وسأهرب بعدها سريعا.. بكل تأكيد لن يرى وجهي الذي غطيته بقطعة من الثياب.

المشكلة أن هذه الخطوة ستتطلب أعصابا قوية لا أملكها.. لكن لا يوجد لدي خيار آخر.. إما هذا أو خسارتي لكل ما بنيته في حياتي.. أسمع صوت جاري يتحدث عبر الهاتف مع أحدهم وهو قريب جدا من باب هذه الغرفة.. يقول بحنق شديد:

-لقد كنت بانتظارك في المكان المحدد حسب الاتفاق.. كان الأجدر بك الاتصال بي قبل أن أخرج من منزلي.. أرجوك أن تلتزم بالموعد غدا!!.

أنهى مكالمته وقد عرفت سبب عودته السريعة.. ليسود الشقة بعد ذلك صمت مخيف.. كنت أتمنى أن تعتاد عيني الظلام لأعرف محتوى الغرفة على الأقل.. لكني فوجئت بالباب يفتح فجأة وبطريقة اعتيادية.. ثم.. النور يعم المكان وأنا لا زلت مختبئا خلف الباب والعرق يتصبب مني بغزارة شديدة.. يبدو أنه لا مفر من المواجهة واستغلال عنصر المفاجأة.. حسنا.. ما إن يتجه ليغلق الباب سأهجم عليه وأدفعه بكل قوتي لأخرج من هنا.. أضع يدي للمرة الأخيرة على قطعة الثياب التي قمت بلفها حول وجهي للمزيد من الاطمئنان.

دقائق طويلة مرت وأنا مختبئ خلف الباب.. ما الذي يفعله جاري في هذه الغرفة؟!.. ما الذي تحويه هذه الغرفة أصلا؟!.. أتذكر أنني سمعت صوت فرقعة قوية.. وسمعته بعدها يتمتم بكلمات لم تصل إلى مسامعي.. قبل أن يتكرر صوت الفرقعة هذه.. وكأنه أخذ شيئا وأعاده إلى مكانه.. ما هو هذا الشيء؟!.. لا أعلم.. إنه.. إنه يعود أدراجه في تلك اللحظة.. حسنا.. حان الوقت.. إنها لحظة الهجوم الآن ولا مجال للتراجع!!!.. ما إن شعرت به يقترب ليخرج من الغرفة.. حتى دفعت الباب بكل قوتي ليصطدم بوجهه ويفقده توازنه ليقع على الأرض.. فتحركت بسرعة البرق وخرجت من مخبئي لأتجه خارج الغرفة.. لكن الوغد تدارك نفسه بسرعة غير متوقعة!!!.. إذ وضع ساقيه ليعرقلني وهو يطلق شتيمة قذرة جدا.

مع كل أسف نجح في عرقلتي قبل خروجي من الغرفة وقد فشل عامل المفاجأة الذي اعتمدت عليه.. حسنا.. الآن سأمر بشجار من طرف واحد.. لصالحه طبعا!!!.. فتمزق جزء من ثيابي وسقط اللثام من على وجهي ليكشف شخصيتي أخيرا.. فانفجر غاضبا وهو يطلق شتيمة قذرة أخرى بحق السيدة (أمينة).. بالطبع.. هو يثق تماما أنها وراء كل شيء.. وهو محق دون شك.. حاول تكبيلي وأنا أحاول وأحاول مقاومته إلى أن تخاذلت شيئا فشيئا بعد أن ارتمى بكل ثقله فوق جسدي وهو يمسك بكلتا يدي بوضع التكبيل.. فتصرفت كطفل وقمت بعمل مضحك وسخيف للغاية.. إذ بصقت بوجهه آملا أن يترك إحدى يدي لأستمر في مقاومته.. لكن هذا أصابه بغضب عارم جعله يضرب رأسي بقبضته وبكل قوته.. لماذا تدور الدنيا حولي؟!.. لا.. عقلي هو الذي يدور.. إنني أفقد وعيي.. لأن الموجودات من حولي تغيب.. وتغيبي.....!!!.

كم من الوقت ظللت فاقد الوعي؟!.. لا أعلم.. لكن عندما استيقظت.. مررت بشعور غريب لم آلفه في حياتي.. ما هذا الذي أراه حولي؟!.. أين أنا بالضبط؟!.. الفضاء.. النجوم؟!.. إنني أسبح في فراغ لا نهائي.. ما هذه البقعة السوداء؟!.. هل هي ثقب أسود؟!.. كم وددت دوما أن أفهم طبيعة الثقوب السوداء ([13]).. وأن أكون داخل أحدها.. إنني في الفضاء فعليا!!!.. في الغيمة السديمية بين النجوم.. أرى حبة رمل سقطت من ساعة رملية عتيقة!!!.. لماذا رحلت يا حبيبتي وتركتني

وحيدا؟!.. جدتي لا تتركيني بدورك أرجوك.. حياتي صامتة دوما.. لكن ما أعيشه الآن أكبر من الصمت.. لماذا؟!.. لا أدري.. أنا لا أريد أن أكون سعيدا.. أريد أن يتوقف شعوري بالتعاسة.. الكلمات والأفكار تتكدس بسرعة في ذهني وأنا في هذا الوضع الغريب.. ماذا عن جسدي؟!.. أنا لا أشعر بشيء.. إنني عاجز تماما حتى عن تحريك يدي.. وكأنني معلّق ومكبل في الفراغ اللانهائي.. وكأنني أسقط برفق شديد في بئر نفسي عميييييق!!!.. إن شخصيتي تبتلع ذاتها.. كيف يحدث هذا؟!.. لا أعلم.. لقد فقدت الإحساس تماما بجسدي وحواسي.. أشعر فقط بعقلي وهو يفكر.. وكأنه انتُزع من جسدي وأصبح كيانا بحد ذاته.. آخر ما أتذكره هو شجاري مع جاري الوغد وفقداني للوعي.. هل.. هل قتلني؟!.. هل أنا ميت؟!.. يا إلهي.. لن أقول أن جسدي قد اقشعر من هذه الفكرة.. لأنني لا أشعر بجسدي أصلا!!!.. عقلي مضطرب بشدة.. إنني أفقد إدراكي وتفكيري المنطقي المرتب.. أعجز حتى عن عد الأرقام في ذهني.. وكأن أحدهم ينتزع مني إدراكي انتزاعا.

كم من الوقت مر علي وأنا في هذا الوضع الغريب؟!.. لا أعلم.. فما حدث بعد ذلك لا يصدق.. إذ شعرت فجأة أنني أعود.. أعود إلى ماذا بالضبط؟!.. أعود إلى عالمنا بالطبع!!!.. لكني لا زلت عاجزا عن التحرك.. أرى وجه السيدة أ.. أ.. (أميرة)؟!.. هل هذا هو اسمها؟!.. أعتقد.. إنها تنظر إلي بفضول.. هل أرى دموعها؟!.. نعم.. إنها تبكي.. لماذا؟!.. لا أعرف.. هناك شخص آخر يقف إلى جوارها ينظر إلي بقلق.. من هو؟!.. لقد رأيته سابقا؟!.. ثم.. أحدهم يخرجني من.. من.. لا أعرف من أين.. يخرجني ويحملني حملا ثم يضعني على الأرض.. أستطيع الآن تحريك يدي وساقي قليلا.. ألتفت حولي بصعوبة شديدة لأرى شيئا غريبا مخيفا مقززا!!!.. هل أنا أهلوس؟!.. أم أن ما أراه حقيقياً؟!.. لا زلت أبحث عن الكلمات المناسبة لوصف ما وقعت عليه عيناي.. هل هو رجل؟!.. نعم.. إنه كذلك.. ربما في أوائل الثلاثينات من العمر.. مشعر.. نحيل جدا.. له لحية طويلة حتى بدا وكأنه أحد رجال الكهف.. المشكلة أنه كان عاريا تماما سوى من حفاظة كتلك التي يرتديها الأطفال.. وقد كان يحبو على ركبتيه كما يفعل الأطفال الرضع الذين لم يكملوا عامهم الأول!!!.

تصلبت تماما من هول الصدمة!!!.. إنني أعيش كابوسا حقيقيا.. ولكن كيف نرى الكوابيس في يقظتنا؟!.. السيدة أ.. أ (أميرة) تشير إلي وتقول شيئا ما للرجل الذي حملني.. كلماتها مختلطة ببعضها وغير واضحة!!.. لكن يبدو أنه انصاع لها.. إذ حملَني مرة أخرى بصعوبة وراح يتبعها إلى مكان ما.. ما إن وصلنا إليه حتى وضعني على مكان مريح بدا لي كالسرير.. أين أنا؟!.. لا أعرف.. السيدة تضع يدها على رأسي.. ثم وجهي.. علامات الخوف واضحة على وجه الرجل المألوف قبل أن يستمع مرة أخرى إلى أوامر السيدة.. ليلتفت فجأة ويبتعد سريعا عن أنظاري التائهة.

كم ظللت على هذا الحال؟!.. أكثر من 5 ساعات كما عرفت فيما بعد.. والسيدة (أمينة) تحاول فعل كل شيء لإعادتي إلى عالمنا.. أشعر بكلماتها الآن تنتظم في مسامعي.. كما أنني بت أتحكم بصورة أفضل في يدي وساقي.. وكأنني طفل رضيع يكبر بسرعة خارقة.. لكني كنت مرهقا إلى درجة مخيفة.. ثم:

-حمدا لله على سلامتك يا (خالد).. حمدا لله على سلامتك.. واضح من ملامحك أنك تسمعني الآن وتفهم ما أقوله لك!!!.

قالتها وراحت تبكي وهي تحتضنني بحنان بالغ!!!.. شعور غريب.. أنا لم تحتضنني امرأة من قبل سوى جدتي.. الذهول يغمرني تماما وكأنني جسد ميت يسمح للسيدة (أمينة) أن تفعل به ما تشاء رغم أنني استعدت جزءا كبيرا من وعيي.. ثم مسحَت دموعها.. وراحت تقول مطمئنة:

- انتهى كل شيء.. أنت بأمان الآن.. جميعنا بأمان.. لقد كشفنا السر.. عرفنا كل شيء أخيرا يا (خالد).

استمعت إليها وأنا أستعيد إدراكي تدريجيا لأكتشف أنني في شقتي!!!.. مهلا.. لماذا أشعر بكل هذا البرد؟!.. إن جسدي يرتجف وأسناني تصطك بقوة.. إن.. إن ثيابي مبللة بالكامل.. وكأنهم أخرجوني من حوض سباحة.. كيف تبللت بهذه الصورة؟!.. نهضت مترنحا مرتجفا لأتجه إلى غرفتي حيث استبدلت ثيابي.. وعدت إلى الصالة لأجلس مع السيدة (أمينة) مرة أخرى.. لا زلت عاجزا عن النطق بسبب رأسي المضطرب.. ألتقط نفسا عميييقا محاولا ترتيب أفكاري.. لأتحدث أخيرا بصوت مضطرب وكلمات مقتضبة:

- م.. م.. ما الذي حدث؟!!.

قالت بحزن شديد:

- لقد عرفت الآن ما فعله جارك بشقيقه.. لقد كدت أنت أن تلحق به وتصاب بالجنون أيضا.. لكني تداركت الأمر وأنقذتك لحسن الحظ.

وضعت يدها على رأسها كناية عن هول الموقف وهي تكمل:

- عندما فاجئنا جارك ووصل شقته مبكرا.. توجه إلى الغرفة التي اختبأت أنت فيها.. وسمعتكما بعدها بلحظات تتشاجران.. فوجدتها فرصة مثالية للهرب.. المعذرة.. وجودي لم يكن ليفيدك بشيء.. لذا هربت بسرعة شاعرة بقلق بالغ عليك.. خاصة وأنك ظللت في شقته لفترة طويلة ساد فيها الصمت التام.. لم يكن الاتصال بالشرطة أمرا متاحا كوننا نحن من اقتحمنا الشقة وخالفنا القانون.. لذا فكرت أن آتي بمساعدة من نوع آخر.. إذ اتصلت ب. (عامل الأقفال) ذاته.. وطلبت منه أن يأتي إلى هنا مع أي شخص يثق به لندخل الشقة مرة أخرى.. ووعدته بمكافأة ضخمة مضاعفة للمرة الأولى.. فهرع إلى هنا مع صديق له بعد أن أغراهما المال.. ثم طلبت منهما أن نقتحم شقة جارك وننقذك منه عنوة!!!.. وبالفعل.. اقتحمنا الشقة بعد بضع ساعات من هروبي منها.. حيث التحم الرجلان معه في شجار عنيف لكنهما تغلبا عليه بسرعة لحسن الحظ.. لأجدك بعد ذلك في نفس الغرفة التي اختبأت فيها.. وفي صندوق كبير بيضاوي الشكل لم أرَ مثله في حياتي.. لقد كنت داخل هذا الصندوق بكامل وعيك لكن عينيك في حالة ذهول عميق غير مفهوم تنظران إلى الهواء بعَتَه وغباء شديدين!!!.. عندها عرفت أن هذا الصندوق الغريب وراء كل شيء.. وإن لم أفهم كيفية عمله بالضبط.

قلت بحيرة وقد استعدت عافيتي تماما:

- كيف يفعل صندوق بيضاوي الشكل كل هذا بدماغي؟!.. لم أشعر في حياتي كما شعرت أثناء تواجدي فيه.. عقلي تداخل ببعضه فجأة.. وكأن أحدهم ينتزع منه كل المعلومات التي تعلمتها منذ طفولتي.. ووجدت نفسي أطير في الفضاء بين النجوم.. لكن الشعور لم يكن جميلا أبدا!!!.. ثم.. رأيت ذلك (الرجل الطفل) الذي أخافني منظره كثيرا.. مهلا.. هل كان هذا شقيق جاري الذي نحاول مساعدته؟ !!.. أم أنني كنت أهلوس؟!!.

هزت رأسها نفيا بقوة وهي تقول:

- لم تكن هلوسة إطلاقا.. من رأيته هو شقيق جارك بالفعل.. ذلك المسكين الذي أخبرتك عنه.. من الواضح أن الصندوق له دور في إصابته بهذه الحالة المزرية من التخلف العقلي.

قلت بشرود:

-لا زلت عاجزا عن الفهم.. كيف يمكن لصندوق كهذا أن يؤثر على عقولنا بهذه الطريقة الغريبة؟!!.. كيف يمكن أن.....

خرست فجأة ولم أكمل عبارتي.. إذ برقت عيناي فجأة وأنا أقول:

-يا للشيطان!!!!.

سألتني السيدة (أمينة) بلهفة شديدة:

-ماذا يا (خالد)؟!.. ما الذي اكتشفته؟!!.

قلت مصدوما:

-هذا الصندوق.. يا إلهي.. هل يعقل أن يكون جاري قد جاء به إلى (الكويت)؟ !!.. لا يمكن أن أصدق أن المال يصيب الناس بهذا الذكاء الإجرامي.. لقد.. لقد.. لقد قرأت منذ فترة عن طريقة علمية لحرمان الإنسان من جميع حواسه.. صندوق صنعه مجموعة من العلماء تعتمد آليته على وجود كمية من الماء المالح فيه وتكون درجة حرارته معادلة تماما لدرجة حرارة الجسم.. حيث يجلس الإنسان في الداخل فيساعده الملح الموجود في الماء على الطفو قليلاً.. ليتم بعدها إغلاق الصندوق بواسطة غطاء بيضاوي الشكل.. فيعم الظلام التام الذي لا يسمح لمن يخضع لتلك التجربة برؤية أي شيء.. علما بأن جدران الصندوق عازلة تماما للصوت والرائحة.. ولا ننسى أيضاً إغلاق الفم بكمام.. باختصار.. تصاب حواس الإنسان الخمس حينها بالشلل التام.. وقد عانى كل من خضع لتلك التجربة من الهلوسات والأوهام ومشاهدة أشياء لم تكن موجودة أصلا.. فهناك من ظن أنه رأى الجن.. وآخر ظن أنه يسبح في الفضاء بين النجوم.. وآخر رأى وجوها مخيفة ([14]).

ردت بذهول:

-هل تريد أن تقول أن....

قاطعتها سريعا:

-بالضبط.. هو ما تظنينه.. لقد أراد جاري أن يتخلص من شقيقه.. ولم يكن لديه في البداية أي خيار سوى القتل.. لكن جريمة القتل ستخضع لتحقيقات عديدة سيكون فيها جاري المتهم الأول بكل تأكيد.. لذا جاء بهذه الفكرة الغريبة التي لا يمكن أن تخطر ببال أحد.. يبدو أنه دفع مبلغا طائلا للحصول على هذا الصندوق الذي يجهل الأطباء ورجال الشرطة وجوده في (الكويت) أصلا.. مما سيضع القضاء في موقف حرج ويجعله يعلن مستسلما -وبشهادة المختصين- أن شقيق جاري فاقد للأهلية بعد أن فقد عقله (لسبب غير معروف).. وهو تحديدا ما كان يراهن عليه جاري.. فما دام السبب غير معروف.. لن توجد جريمة أصلا كي يتم التحقيق فيها من قبل رجال الشرطة.

كانت تنظر إلي منبهرة غير مصدقة أنني كشفت السر.. لأقول بفم امتلأ باللعاب من شدة التوتر:

-كان من المستحيل أن يرد أمر كهذا في ذهن رجال الشرطة أو الأطباء في (الكويت).. ولا حتى في أي مكان في العالم.. هذا الوغد مارس حيلة قذرة جدا.. فنجح في خطته باقتدار وحصل على الورث وعلى الوصاية الكاملة للأموال.. لقد خشيَ أن يكشف أحدهم وجود الصندوق في بيته

ويفضح الخطة بأكملها.. فاستأجر تلك الشقة ووضع الصندوق فيها ليمارس -وبأريحية تامة درءا للشبهات -عملية (انتزاع عقل) شقيقه.. الأمور واضحة الآن.. فبشيء من الخيال أستطيع أن أقول أنه يقوم بتخدير شقيقه باستمرار.. ومن ثم حبسه طوال فترة التخدير ولساعات طويلة كل يوم في هذا الصندوق مما يجرده تماماً من كل حواسه.. وربما لم يكن يخرجه منه إلا ليطعمه وينظف فضلاته.. فظل يفعل ذلك باستمرار لبضعة أيام إلى أن فقد المسكين عقله تماما.. لقد جربت التواجد في الصندوق ساعات قليلة ورأيت بنفسك ما جرى لي.. فما بالك لو حبسني فيه لأيام؟!!.

قلتها وأنا أنظر إلى ذراعي باحثا عن شيء ما.. و.. ابتسمت بمرارة وأنا أمد يدي للسيدة (أمينة) لترى مكان الحقنة.. لقد أفقدني وعيي وحقنني بالمخدر ثم وضعني في ذلك الصندوق.. تماما كما فعل مع شقيقه.. إن استنتاجي سليم تماما.

قالت السيدة (أمينة) بذهول شديد:

-أنت.. أنت عبقري بحق.. أنت مذهل يا (خالد)!!!.

ابتسمت بمرارة وأنا أقول:

-لن يفيدنا هذا الاكتشاف بشيء.. إذ لن نتمكن من إبلاغ الشرطة.. سيعرفون حينها أننا اقتحمنا شقة جاري.. وهي جناية سندفع ثمنها وإن كنا قد أنقذنا شقيقه منه.

أطرقت برأسها أسفا.. وهربت دمعة من عينيها.. فنظرت إليها متأثرا.. ثم قلت باحترام وامتنان شديدين:

-لقد أنقذت حياتي يا سيدة (أمينة).. أشكرك كثيرا.. هذا جميل لن أنساه أبدا.. لحسن الحظ لا يزال العالم يحوي أناس مثلك.. إنك تضحين بنفسك ووقتك ومالك من أجل ذلك المسكين وهو لا يعلم أي شيء عن تضحيتك.. صدقيني.. هذا هو المقياس الحقيقي للبطولة.

تجاهلت ثنائي تماما وهي تنظر إلي بقلق وكأن هناك أمراً لم تخبرني به حتى الآن.. ثم:

-(خالد).. لا نزال في ورطة حقيقية.. فهناك أمر لم أخبرك به بعد.. أرجوك حاول أن تسيطر على أعصابك.. لقد.. قتلنا جارك!!!.

صرخت بذهول:

-ماذا؟ !!.. كيف؟!!.

ردت بتوتر:

-لقد اشتبك بعنف مع الرجلين اللذين دخلا شقته.. ووضح أنه سيفعل كل شيء كي لا نتغلب عليه ونفضح ما كافح من أجله.. فقد طعن أحد العاملين في كتفه.. ولكن الآخر اشتبك معه وتمكن لحسن الحظ من أخذ السكين منه ليطعنه في رقبته.. فمات فورا.. إنه يرقد جثة هامدة في شقته الآن.. إذ هرب العاملان بذعر وتركاه بعد أن أخذا ما وعدتهما به من مال.. من المرجح أنهما سيتركان البلد اليوم ولن يعودا أبدا.. وأنا لا أستطيع التخلص من جثته لوحدي.

سألتها برعب وقد انقبض قلبي:

- يا إلهي.. لقد غرقنا حتى النخاع في تلك القضية اللعينة.. كيف سنتخلص من هذا المأزق الآن؟؟!!.. مهلا.. مهلا.. ماذا فعلت بشقيقه؟!.

ردت بنبرة تحوي الكثير من الشفقة:

-لقد أخذه سائقي الخاص إلى بيتي وهو مستسلم تماما لنا وكأنه طفل رضيع لا يحمل في ذاكرته الخوف من أحد.. سأجلب فيما بعد ممرضا خاصا لتأهيله.. لا أعلم إن كنا نستطيع إعادته إلى حالته الطبيعية الآن.. حقيقة لا أعرف.. لكني سأحاول دون توقف.. لحسن الحظ أن الضجة التي أحدثناها لم يصل صداها لأحد.. ولحسن الحظ أيضا أن أحدا لم يرَ سائقي وهو يحمل ذلك المسكين بصعوبة ويضعه في السيارة.. المهم الآن.. هناك خطوة أخيرة يجب القيام بها.. يجب أن نخرج جثة جارك من هنا يا (خالد).. لا بد أن تساعدني.. نحن الاثنين متورطان في الأمر ومن مصلحتنا أن نخفي الجثة.. ستمر أنت تحديدا ببعض التحقيقات كونك جاره.. لكنك ستنكر معرفتك به.. فأنت بالفعل لا تعرف حتى اسمه.. والعاملِيْن هربا ولن يعودا بعد أن قتلاه.. ولا تنسَ أن أحدا لا يعرف بأمر علاقتي الشخصية بك.. إنك بمأمن تماما فلا تخش شيئا.

لم يكن كلامها مطمئنا بالطبع.. لقد تورطت بما فيه الكفاية ولا يوجد أي مجال للتراجع الآن.. كنت غير مصدق أنني أمر بتلك التجربة التي جعلت مني شريكا بصورة أو بأخرى بجريمة قتل وقبلها باقتحام شقة مأهولة.. هل يعقل أن يحمل شخص متفوق يدرس في كلية الطب هذا السجل المخيف؟!.

طرحت تلك الخواطر جانبا.. ثم التفت إلى الساعة.. لأجدها وقد تجاوزت السادسة مساء.. فنهضت وأنا أقول بتوتر شديد:

-يجب أن نخرج الجثة في وقت متأخر من مساء اليوم.. إنها مغامرة حقيقية.. لو رآنا أحد في الخارج فستنتهي حياتنا!!!.

نظرت إليّ بوجوم.. ثم هزت رأسها موافقة.. لأنهض بعدها وأطلب منها مرافقتي إلى شقة جاري حيث وجدته صريعا في غرفته والدماء تملأ الأرض خارجة من رقبته كما علمنا.. لم تكن هذه المرة الأولى التي أرى فيها جثة هامدة.. لذا لم يشعرني هذا المنظر بالخوف رغم أنني جبان بالفطرة.. فدراسة الطب لها مفعول السحر بالفعل لتخفيف حدة الخوف من الجثث والموتى.. أما السيدة (أمينة) فقد كانت مرعوبة كحال كل إنسان غير معتاد على التواجد قرب الجثث.. خاصة تلك التي تعرضت للقتل.

المهم أننا رحنا نمسح بصماتنا من كل مكان نتذكر أننا وضعنا أيدينا عليه.. ثم قمنا بتنظيف الدماء التي تفجرت من الجثة وملأت الأرض.. وقد قمنا بعدها بلف الجثة في سجادة كان جاري قد وضعها في غرفته.. لنخرج أخيرا مرهقين منهكين تماما بانتظار منتصف الليل كي نخرج الجثة.. جلسنا بعدها في شقتي ننتظر بتوتر شديد مرور الوقت.. الغريب أن ساعات مرّت لكنا لم نتحدث كثيرا.. إذ ألقى القلق بظلاله على المكان حتى أصبح كيانا عملاقا يجثم على صدرينا ويمنعنا من التصرف بصورة طبيعية.. إلى أن حان الوقت أخيرا.. فما إن رأينا الساعة تتجاوز منتصف الليل.. حتى خرجت من شقتي متجها إلى الطابق الأسفل.. وإلى خارج البيت بأكمله.. ألتفت يمينا ويسارا.. الشارع هادئ جدا.. لكن هذا ليس مطمئنا أبدا.. ففرصة أن يرانا أحدهم متاحة.. عموما.. لا يوجد حل آخر.. عدت إلى شقتي بسرعة.. وأخذت السيدة (أمينة) معي متجهين إلى شقة جاري مرة أخرى وقد أصبحت مزارا سياحيا كما يبدو!!!.. ليأتي دور العمل الأصعب.. إذ رحت أدفع السجادة تارة.. وأسحبها تارة أخرى بمساعدة مضحكة من السيدة (أمينة).. عروقي ستتفجر من ثقل الجثة.. حتى بدا لي وكأنني أسحب وأدفع قطارا بكامل ركابه!!!.. لكن الرعب والخوف على

مستقبلي جعلا مني بطلا في حمل الأثقال.. إلى أن خرجنا من شقته أخيرا.. حيث وضعنا الجثة في المصعد.. ونزلنا جميعا.

ستكون كارثة لو فتح باب المصعد في الدور الأرضي وشاهدنا أحدهم.. هناك شقتان في الدور الأرضي.. إحداهما فقط مأهولة على حد علمي.. لكن.. لحسن الحظ لم يكن هناك أحد.. فحملت الجثة بجسدي الهزيل وبصعوبة بالغة إلى أن وصلت بها إلى سيارتي حيث كدستها في الصندوق.. لتركب السيدة (أمينة) معي ونتجه إلى منطقة صحراوية تطلّب الوصول إليها أكثر من ساعة حيث رمينا الجثة هناك.. آملا ألا يربط رجال الشرطة أبدا بيني وبين اختفاء جاري حتى وإن عثروا على جثته.. فقد بللنا ثيابه بالكامل بواسطة زجاجات ماء أخذتها معي من شقتي حتى تختفي بصماتنا من على ثيابه.. ثم تخلصنا من زجاجات الماء الفارغة في حاوية البلدية بعيدا عن الجثة.. أتصرف مع الأسف وكأنني قاتل محترف.

عدنا أخيرا إلى البيت قرابة الثالثة فجرا وقد شعرنا أننا تخلصنا من هم ثقيل جدا.. وما إن وصلنا حتى ودعتني السيدة (أمينة) بحرارة وشكرتني كثيرا على كل ما فعلته.. ثم اتفقنا بعدها على ألا نتواصل إطلاقا خلال الفترة القادمة.. من الضروري ألا يعرف رجال الشرطة بأمر علاقتي بها.. فقد يكون هذا خيطا يقودهم لجريمتنا.. لذا ركبت سيارتها وابتعدت سريعا عن شقتي وعن حياتي بأكملها.. فكانت هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها.

صعدت بعدها إلى شقتي وأخذت حماما ساخنا.. ثم وضعت ثيابي كلها في كيس.. لأخرج مرة أخرى بسيارتي حاملا الكيس إلى حاوية قمامة في منطقة (العدان) البعيدة تماما عن منطقة سكني (الرميثية).. ليلة طويلة للغاية كما ترون.. ليلة مرعبة لا تصدق.. المشكلة أن لدي محاضرة في الثامنة صباحا يستحيل أن أتغيب عنها لسبب بعيد تماما عن أهمية الدراسة.. فمن الضروري أن أمارس حياتي العادية حتى لا أثير الشكوك.

مرت الأيام القليلة التالية ببطء شديد والقلق يلتهم قلبي خوفا من كشف أمري.. إنه حال كل من يترقب البلاء.. وهذا أسوأ بكثير من حدوثه فعليا.. أعلم أن صاحب البيت سيطرق باب شقة جاري ليستلم الإيجار.. وهذا الأخير لن يرد عليه بالطبع.. سيتصل به وربما سيجد الهاتف مغلقا بعد أن نفدت بطاريته.. لا أعرف إن كان سيبحث عنه.. أم سيأخذ حكما من المحكمة ليقتحم الشقة ويفرغها من محتوياتها ثم يقوم بتأجيرها مرة أخرى.. المهم أنه في كل الأحوال سيرى ذلك الصندوق الغريب.. عندها قد يبلغ الشرطة.. أو قد يرمي الصندوق دون أن يعرف طريقة عمله وما يتسبب به.. هل أدخل الشقة مرة أخرى وأخرج الصندوق؟!.. مستحيل.. لقد حاولت ذلك فعليا حين أردنا التخلص من جثة جاري في تلك الليلة.. لكنه ثقيل جدا.. ثم.. ماذا عن جاري نفسه؟!.. هل سيبلغ أحد أقاربه عن اختفاءه؟!.. ماذا عن شقيقه المسكين؟!.. ألن يسأل أحد السيدة (أمينة) عن كيفية انتقاله إلى حضانتها؟!.. كيف لم تطرأ تلك التساؤلات في ذهني سوى الآن؟!!.. إنه القلق الذي يرسم لك عشرات الاحتمالات السوداء ويجعلك تطرح تساؤلات لم تكن في البال.. اللعنة!!!.

كنت أعيش وسط تلك الخواطر خائفا مرعوبا من كشف أمري.. منتظرا عودة جدتي من السفر قريباً وقد شعرت أن حياتي فقدت البركة بسفرها.. قبل أن.. قبل أن أتلقى تلك الرسالة.. رسالة هاتفية طويلة للغاية من السيدة (أمينة).. وتحوي معها صورة.. إنها المرة الأولى التي تتواصل فيها معي بعد تلك الليلة المشؤومة.. وقد فاجأني هذا كثيرا.. فقد اتفقنا على الابتعاد عن بعضنا تماما كما تعلمون.

نظرت إلى الصورة التي أرسلتها لي بغباء شديد دون فهم.. ثم رحت أقرأ الرسالة و.. بدأت أستوعب.. وليتني لم أستوعب!!!.. خلايا التفكير الرمادية في دماغي تتعرض للشلل!!!.. أنفاسي تضطرب.. عيناي تتسعان حتى كادتا أن تخرجا من محجريهما.. إنها من المرات القليلة في حياتي التي أشعر فيها أنني أغبى مخلوقات الأرض!!!.. هل يعقل أن يتم التلاعب بي بهذه الطريقة؟ !!.. هل يعقل أن أكون بهذه السذاجة؟!!.

كانت الصورة لشقيق جاري الذي فعلت السيدة (أمينة) كل ما فعلته من أجله.. حيث يظهر في الصورة عاريا تماما مرتديا حفاظات الأطفال بمنظر متناقض غريب لا يصدق.. لكنه كان بحال أفضل.. إذ بدا نظيفا للغاية وقد تم حلق لحيته وتقصير شعره.. حسنا.. هذا أمر ليس بالمستغرب بعد أن عشت أحداث تلك القصة وعرفت تفاصيلها.. لكن.. الصدمة كانت بالشخص الآخر الذي يظهر في الصورة!!!.. نعم.. شخص آخر يبدو وكأنه في أوائل العشرينات من العمر.. يجلس بجانب شقيق جاري وهو عارٍ بدوره سوى من الحفاظات التي يرتديها.. من هو هذا الشخص؟!!!!.. أنا لم أره من قبل!!!!.

أما رسالة السيدة (أمينة) فكانت تقول:

((عزيزي (خالد).. أشكرك كثيرا على مساعدتك وعلى كل ما قدمته لي.. وأنا في واقع الأمر أشعر بشيء من تأنيب الضمير لأنني لم أخبرك بكل الحقيقة وأخفيت عنك بعض التفاصيل.. خاصة وأنك مررت بسببي بمخاطر كثيرة كادت أن تفقدك عقلك وربما حياتك نفسها بسبب ذلك الصندوق الغريب.. عزيزي.. لقد بذلت جهدا رهيبا للحصول على شقيق جارك كما رأيت بنفسك.. لكني لم أفعلها من باب الإنسانية ومساعدة هذا المسكين فحسب.. بل لهدف آخر هو ما تراه في الصورة التي أرسلتها لك للتو.. لعلك تتساءل عن هوية الشخص الموجود في الصورة مع شقيق جارك.. إنه.. إنه ولدي!!!.. فقد حملت من زوجي رحمه الله منذ حوالي 23 عاما.. وبسبب صعوبات في الولادة.. تأثر دماغ الجنين كثيرا وخرج إلى العالم حياً بمعجزة حقيقية لم تفرحني كثيرا.. لأنه خرج مصابا بغيبوبة طويلة للغاية استمرت منذ ولادته وحتى بلوغه سن الـ20 تقريبا!!!.

لقد حاولت طوال تلك السنوات أن أفعل كل شيء لإنقاذ ولدي من تلك الغيبوبة التي التهمت سنوات عمره كلها دون أن يفتح عينيه لحظة واحدة.. فراسلت عشرات المستشفيات وأحضرت له عشرات الأطباء.. لكن لم يكن هناك حل.. إذ ظل في غيبوبته دون أن ندرك إن كان سيستيقظ منها يوما أم سيودّع الحياة التي لم يعشها أصلا!!.. كنت أتواجد معه في المستشفى بصورة شبه يومية على أمل أن يستيقظ.. أيام وسنوات تمر وتمر وتمر دون أن أفقد الأمل لحظة واحدة.. لا يمكنك أن تتخيل كيف تكون حياة الأم حين تزور المستشفى بصورة شبه يومية لأكثر من 20 عاما تقريبا للقاء أقرب الناس إليها آملة أن يفيق من غيبوبته اللعينة وتلتقي عيناه بعينيها.

الغريب أن ولدي استيقظ من غيبوبته بالفعل ودون سابق إنذار!!!.. تماما كما يحدث في الكثير من حالات الغيبوبة.. أنت طبيب وتعلم جيدا أن هذه أمور لا يملك الطب أي كلمة فيها.. لكنه استيقظ وهو يحمل جسد رجل وعقل طفل رضيع لا يعرف شيئا عن العالم.. لذا لم تدم فرحتي طويلا قبل أن أدرك أنني أمام مهمة بالغة الصعوبة.. وهي أن أساعده ليتعلم كل خبرات الحياة من الصفر.. تماما كما يتعلّم الطفل الرضيع ويكتسب الخبرات يوما بعد يوم.. لا يمكن أن أصف لك معاناتي في تلك الفترة رغم أنني ظللت أستعد لهذا اليوم منذ سنوات.. بل ودرست علم النفس في شبابي فقط لأساعد ولدي إذا ما استيقظ من غيبوبته يوما.. دعك من الجهد الهائل الذي بذلته

كي لا تصل تلك القصة أبدا إلى وسائل الإعلام.

المهم أن عملية تأهيل ولدي عقلياً كانت صعبة جدا رغم كل الجهود التي بذلتها معه.. كانت حالته نادرة يصعب أن تجد مدرسة تستقبلها سوى مدارس المعاقين والمتخلفين عقليا.. وقد كنت أرى في ذلك ظلما له.. فهو لم يكن معاقا أو متخلفا عقليا.. إنه فقط لم يحصل على ما حصلنا نحن عليه من فرصة الولادة الطبيعية ومن ثم العيش في دورة الحياة المعتادة لنتعلم كل شيء حسب ما تسمح به مراحلنا العمرية.

المشكلة أن كل جهودي ودراستي لم تقدم له أي فائدة بعد أن اكتشفت أن ولدي لم يتقدم خطوة واحدة منذ استيقاظه من غيبوبته وطوال عامين تقريبا!!!.. كنت أتألم وأبكي باستمرار وأنا أراه وحيدا لا يحتك بأحد على الإطلاق ولا يجد أطفالا مثله يلعبون معه ويمارس طفولته معهم.. لك أن تتخيل صعوبة الأمر وقسوته عليه وعلي.

لقد تبنّيت طفلا من إحدى الدول الأجنبية كون التبني غير مسموح به هنا.. فعلت ذلك كي يكون الطفل رفيقا لولدي فيفرح لصحبته واللعب معه -ولو بصورة مؤقتة -لكن ولدي آذاه كثيرا مع الأسف الشديد.. والسبب هو الفارق الجسدي الهائل بينهما.. لأدرك أن خطتي هذه فاشلة تماما.. فأعدت الطفل إلى ملجأ الأيتام في بلده.. وظللت أبحث عن حل آخر بيأس شديد قبل أن يسطع الأمل فجأة في ذلك اليوم.. حين جاء إلى مكتبي رجل -عرفت فيما بعد أنه جارك -ليخبرني أن شقيقه الذي يتجاوز عمره ال35 عاما قد فقد عقله تماما بصورة مفاجئة دون أن يفهم أحد السبب.. فأصبح كطفل رضيع لا يعرف شيئا من مهارات الحياة.. كنت أستمع إليه بذهول شديد.. ذات الأعراض.. ذات التصرفات.. الفارق الوحيد هو أنني أعرف سبب تخلف ولدي العقلي.

لقد أثارت تلك القصة اهتمامي كثيرا.. وبدأت بتتبع تفاصيلها بنفسي.. خاصة حين اشترطت على جارك أن يفتح ملفا لشقيقه في عيادتي النفسية وأن يأتي به أكثر من مرة لإجراء المزيد من الفحوصات عليه كي أمنحه الإقرار الذي يريده والذي يثبت أن شقيقه متخلف عقليا بالفعل.. وظل السؤال يتردد في أعماقي طوال زياراته التي استمرت قرابة الشهر ورغم كل الجلسات النفسية التي مارست فيها كل خبراتي.. كيف تبدل حال شقيقه المسكين ليصبح كما هو عليه؟ !!.. كيف يتحول رجل متعلم مثقف متزن إلى نسخة عقلية -إن صح التعبير -من ولدي الذي كان في غيبوبة منذ ولادته؟!.. كنت أشعر أن تلك القصة ستفيد ولدي بشكل أو بآخر دون أن أعرف كيف.. و.. أثناء بحثي عن الإجابة.. تولدت في ذهني فكرة غريبة.. فكرة عبقرية.. كانت الفكرة هي أن أتبنى شقيق جارك ليعيش في بيتي ويكون رفيقا لولدي.. فيلعب معه ويقتل الوحدة التي يعيشها.. خاصة وأنهما يلائمان بعضهما كثيرا كون كل منهما يحمل جسد رجل وعقل طفل.

لذا تتبعت جارك وحاولت أن أبقى على تواصل به على أمل العثور على الوسيلة المناسبة لآخذ شقيقه منه ليكون في عهدتي.. ويبدو أنه شعر أن هناك شيئا ليس على ما يرام.. وأنني قريبة جدا من اكتشاف لعبة ما يمارسها هو ليبقي شقيقه على حالة الجنون تلك.. بل ويجعلها تزداد سوءا ربما.. لذا كان يتجرأ ويهينني أحيانا كثيرة كما رأيت بنفسك.. عالما أنني لن أشكوه لأحد كوني لا أعلم أصلا كيفية إصابة شقيقه بالجنون.. ويبدو أنه خشي أن أسبب له المشاكل قبل صدور الحكم لصالحه.. فانتقل إلى الشقة المقابلة لشقتك هربا مني ومن ملاحقتي المستمرة له.. وراح يكمل مسلسل العبث بعقل شقيقه فيها.. لكني عثرت على مكانه بعد عناء وبحث.. فالتقيت به وواجهته في تلك الليلة حين دفعني وتدخلت أنت لتصبح طرفا في تلك القصة رغما عنك.

عندها فكرت باستخدامك لمساعدتي.. لقد تصرفت دون تخطيط وبارتجال تام حين طلبت منك أن نقتحم شقته علّنا نكتشف السر.. لتتسارع الأحداث ويحدث ما حدث.. هذه هي الحقيقة.. أرجوك اغفر لي خداعي لك يا (خالد).. أنت إنسان طيب للغاية وأنا أخبرك بالحقيقة فقط لأنني وجدت أنه من الظلم استغلالك بهذه الصورة دون أن أكشف لك الأمر!!!.

وأرجوك تذكّر.. أنت لا تستطيع أن تبلغ الشرطة عني كونك ساعدتني في تفاصيل تلك الجريمة وأخفيت الجثة معي.. لا تنسَ أيضا أنني أنقذت حياتك وأخرجتك من ذلك الصندوق الذي وضعك فيه جارك ليجعلك تسير على خطا شقيقه.. يبدو أنه فعلها ليفقدك عقلك كي لا تشهد ضده بعد أن وجدك في شقته وظن أنك فهمت ما يحدث وعرفت بأمر جريمته.

إنني سعيدة جدا الآن.. فلأول مرة أجد ولدي يبتسم بعد أن وجد من يؤنس وحدته ويقضي وقته معه في اللعب.. ربما سيساهم هذا في علاجهما معا وفي تأهيلهما عقليا.. من يدري؟!.. لقد استأجرت ممرضة خاصة لتعينني على تربيتهما.. لن أفقد الأمل أبدا.. سأظل أحاول وأحاول.. أنا واثقة أنني سأنجح في النهاية.. هذا كل ما أردت قوله.. وداعا يا (خالد).. وداعا.. وأعدك أنك لن تراني بعد اليوم.. أرجوك اغفر لي خطئي)).

كان هذا فحوى تلك الرسالة الطويلة التي قرأتها بأنفاس لاهثة.. ما الذي سأفعله الآن؟!.. أضرب رأسي في الحائط؟!.. هذه المرأة اللعينة التي ظللت أمتدحها ليلا ونهارا كانت تخدعني طوال الوقت!!!.. فورطتني بجريمة قتل واستغلتني فيها أفضل استغلال.. إنها محقة تماما في كل ما قالته.. لا أستطيع الإبلاغ عنها أبدا.. سأكون في مأزق حقيقي لو فعلت.

الحقيرة تطلب مني أن أغفر لها خطأها؟!.. الخطأ هو حادث عَرَضي غير مقصود.. أما الغش والكذب والتلاعب فهي ليست أخطاء عرضية.. بل اختيارات متعمدة.. فكيف أغفر لك كل هذا؟!!.. و.. أمام هذه الأفكار والخواطر والشعور بالغباء الشديد.. أمسكت هاتفي النقال وبحثت عن رقم هاتفها لأفرغ غضبي فيها على الأقل.. لكن.. الجهاز كان مغلقا.. اتصلت أكثر من مرة دون جدوى.. فتصرفت بطريقة صبيانية مع الأسف حين أرسلت لها رسالة مليئة بالشتائم واللعنات دون أن يصلني أي رد منها أيضا.. مما أثار جنوني أكثر!!!.

غريب فعلا حين تشعر أن أحدهم قد خدعك.. تهتز ثقتك بنفسك كثيرا وتشعر بالغباء وعدم الأمان.. أعترف أن هذه القصة هي من أسوأ تجاربي.. حيث اقتحمت فيها شقة جاري بطريقة غير قانونية.. والتحمت معه في شجار عنيف كنت فيه الطرف الخاسر.. فوضعني في ذلك الصندوق وكاد أن يفقدني عقلي.. وقد ساهمت بعدها في إخفاء معالم جريمة قتل لأغطي على حادثة دخولي شقته.. لتأتي تلك اللعينة بعد كل هذا وتخبرني أنها كانت تستخدمني طوال الوقت وتخدعني!!!.. لا يمكن أن يتصور أحد مدى الهزة النفسية الهائلة التي أصابتني.. والتي جعلتني أياما طويلة أكره حياتي نفسها.

ماذا حدث بعد ذلك؟!.. لقد كشف رجال الشرطة اختفاء جاري بعد بضعة أسابيع وبعد عودة جدتي من السفر.. حيث قاموا باستدعائي كما هو متوقع.. لكني أنكرت معرفتي بكل شيء وبذلت جهدا خارقا لأحافظ على ثبات أعصابي أمامهم.. وما ساعدني أكثر هو سجلي النظيف وعدم وجود أي علاقة شخصية بيني وبين جاري الذي أجهل حتى اسمه كما علمتم.. وهذا ما جعلهم يصرفون النظر عني مع مرور الأيام.. هل عثروا على جثته؟!.. لا أعلم حتى الآن.. ولا أعلم إن كان أحد من أقاربه قد سأل عن شقيقه المسكين.. هناك أمور كثيرة أجهلها مع الأسف.

المهم أن الشقة المقابلة قد تم استئجارها من أسرة صغيرة بعد ذلك.. وقد وجدت في هذا علاجا نفسيا لا بأس به علّني أنسى مع مرور الأيام ما حدث.. وإن كانت ذكرى تلك القصة المشؤومة لا زالت تقتحم دماغي بين الحين والآخر بعد أن عشت ساعات عصيبة مع تلك السيدة.. وذلك الجار.. والصندوق الذي لا أعلم إن كان أحدهم قد اكتشف طريقة عمله وما يفعله بالناس.. أحداث متواصلة من الغموض والقلق والتوتر كادت أن تفقدني عقلي بعد أن عشت تفاصيلها لحظة بلحظة.. بسبب جاري.. الذي كان يقطن في الشقة المقابلة!!!.

أساطير الحب!!!

ليلة الخميس.. أواخر شهر (ديسمبر) من عام 2010.. أقود سيارتي وصوت (عبد الحليم حافظ) يشدو كالعادة وكلماته تقطر حزنا في رائعته (موعود).. لا يزال ذهني مبعثراً قليلا بسبب أحداث قصة جاري وشقيقه المسكين والسيدة (أمينة) التي تلاعبت بي وخدعتني.. كنت قد خرجت للتو من تحقيقات الشرطة التي شعرت بعدها بشيء من الأمان بعد أن ابتعدت الأنظار عني دون أن أعرف ما آلت إليه تحقيقاتهم.. أحاول أن أرتب أفكاري وأستعيد توازني.. لكني عاجز عن ذلك.. فقد كنت متجها إلى مكان غير مألوف.. البرد في الخارج يجمد أفكارك نفسها!!!.. لهذا يبدو الدفء داخل السيارة حميما رائعا.. الغيوم تنذر بالويل.. ستمطر بعد قليل بغزارة دون شك.. آآآآآه.. لم أتوقع أن تبدأ قطرات المطر بالتساقط مع كلمتي هذه!!!.. صدفة غريبة بالفعل.. لا زلت أقود سيارتي إلى منطقة (الرقعي) التي لا أذكر أنني دخلتها في حياتي قبل الآن.. لا أعرف لماذا بدأ ذهني يسترجع تفاصيل الرسالة التي وصلتني عبر البريد الإلكتروني منذ أيام قليلة فحسب من سيدة في أوائل الأربعينات من عمرها.. حيث بدأت رسالتها بعبارات التحية والمجاملات المعتادة.. لتطلب مني بعدها أن أتصل بها للضرورة القصوى بعد أن أرفقت رقم هاتفها واسمها الثلاثي في آخر الرسالة!!!.

فاتصلت بها عالما أنها مجرد مكالمة هاتفية لن تضر بشيء وإن الأمر على الأرجح متعلق بمذكراتي التي نشَرْتها على مدى سنوات وأصبحت متاحة للجميع كما لم يعد يخفى عليكم.. وقد تحدثت معي السيدة بجدية واضحة وهي تخبرني أنها تود لقائي كونها عاشت تجربة صعبة فريدة من نوعها تريد أن تلقيها على مسامعي.. وستكون ليلة جميلة لن أنساها أبدا على حد قولها!!!.

كان من الممكن أن أتجاهل الأمر برمته.. لكن السيدة ألحت علي كثيرا ومنحتني كل الضمانات التي ستجعلني أشعر بالأمان عند زيارتي لها.. خاصة بعد أن عرفت اسمها الثلاثي ورقم هاتفها.. بل ومنحتني أيضا رقم هويتها لمزيد من التأكد والاطمئنان.. و.. لا أعرف لماذا ضعفت بعد كل هذا!!!.. ربما هي الرغبة لملاقاة أناس جدد بين الحين والآخر بسبب حياتي الكئيبة البعيدة تماما عن الكون بأكمله.. وربما هي الأجواء الحميمة في فصل الشتاء والتي تشعرك بالرغبة الشديدة أن تكون في أماكن دافئة -إلى جانب بيتك -تمسك فيها بكوب القهوة وتشعر بحرارته بين يديك.. وقد يكون السبب الرئيسي هو الفضول أيضا.. المهم أنني وافقت في النهاية.. لكن بعد إجراء هام كان لا بد من اتخاذه.. إذ أخرجت ورقة وكتبت عليها وصفا كاملا للمكان الذي سأذهب إليه.. ووضعتها في أحد أدراجي.. لو كان هذا فخ من أحدهم.. فسأتمكن من تهديده بتلك الورقة وأن رجال الشرطة سيعثرون عليها في حال اختفائي وسيعرفون وجهتي.. حالة بارانويا أعيشها باستمرار كما ترون.. لكن من يلومني؟!!.

توقف تسلسل أفكاري وأنا أركن سيارتي أمام تلك العمارة السكنية الحديثة حسب الوصف الذي أخذته من السيدة التي علمت أن اسمها (أحلام).. ترجلت من السيارة ببطء شديد محاولا الانتباه ومراقبة خطواتي كي لا أقف وسط بِرَك المياه الصغيرة التي تكونت بفعل الأمطار.. أضع يدي على رأسي عالما أن هذه الطريقة لن تحميني من قطرات الماء التي تتساقط علي حتى بللت شعري سريعا.. أدخل المجمع السكني وأنا أضم الجاكيت الذي أرتديه إلى جسدي حتى أكاد أعصر نفسي داخله.. أتجه إلى المصعد بخطوات هادئة جدا.. ثم إلى الدور ال15.. وإلى تلك الشقة أخيرا..

أطرق بابها بتردد شديد وأنا ألتفت حولي.. لأسمع صوتا أنثويا يأتي من الداخل ويقول بهدوء عميق:

-تفضل يا (خالد).. الباب مفتوح.

فتحت الباب لأصطدم بالظلام فقط ولا شيء غيره!!!.. ثم:

-المعذرة.. هذا الظلام لسبب محدد ستعرفه لاحقا.. لكن تستطيع أن تثق بي.. إنك تعرف كل شيء عني فلا تخشَ شيئا.. أرجوك أن تدخل عبر ممر الشقة.. حاول أن تستدل بضوء الشمعة الخافت المنبعث من الصالة.

دخلت بالفعل متوقعا ألا تكون تلك الليلة عادية أبدا.. ومشيت أمتارا قليلة لأجد نفسي في صالة مظلمة سوى من ضوء خافت ينبعث من شمعة تنير جانبا صغيرا من الشقة الفاخرة المرتبة جدا كما بدت لي.. قبل أن أسمع صوتا خلفي يقول بترحاب:

-تفضل يا (خالد).. اجلس على ذلك الكرسي الوثير.

التفت مذعورا لأكتشف أن المتحدثة متسترة بالظلام.. فضوء الشمعة لا يصل إلى مكانها.. وكأنها وضعت الشمعة بطريقة هندسية لا تكشف الركن الذي تجلس فيه.. لماذا؟!.. لا أعلم.. الغريب أنني تصرفت ضد طبيعتي الخائفة المترددة دوما!!!.. إذ جلست كما طلبَت مني رغم أجواء التوتر التي تسيطر على المكان بسبب الظلام.. غريب فعلا أن أكون جبانا ثم ألبي دعوة مريبة كهذه!!!.. تناقض بشري معتاد يضاف إلى جملة تناقضاتنا.. فنحن لا نسير أبدا على مقاييس محددة.. في الأمس أنت طيب.. اليوم قد تصبح قاسيا قليلا.. غدا أنت غاضب متعكر المزاج.. إلخ.. ربما تكون المعلومات الرئيسية للسيدة والتي أخذتها منها عبر الهاتف -مع الورقة التي تركتها في شقتي - هي ما جعلتني أتشجع قليلا ولا أخرج من المكان هاربا.

ما إن جلست وأنا أنظر بتوتر إلى ذلك الركن المظلم الذي تجلس فيه تلك السيدة.. حتى سمعت صوتها وهي تقول بهدوء يحمل نبرة ترحاب واضحة:

-أشكرك أولا على التزامك بالموعد يا (خالد).. ستجد بجانبك طاولة صغيرة وضعت لك عليها إبريق شاي مع كوب وعلبة صغيرة للسكر.. أرجوك اعتبر نفسك في بيتك ولا تخشَ شيئا.. أعرف جيدا إلى أي درجة أنت قلق متشكك.. ولا ألومك على ذلك بعد كل تجاربك وما حدث لك على مدى السنوات السابقة.. حاول أن تسترخي تماما.. ستستمع إلى قصتي ثم ستعود إلى بيتك معززا مكرما.. أعدك بذلك.

قلت مستغربا:

- شكرا لك.. لكن.. لماذا طلبت دعوتي؟!.. لماذا تريدين أن أستمع إلى قصتك أصلا؟!.. لقد طرحت عليك تلك التساؤلات أثناء محادثتنا الهاتفية ولم تقنعني إجابتك صراحة.

ردت بذات الصوت الهادئ:

-هي الإجابة ذاتها التي أخبرتك بها عبر الهاتف ولن أغيرها.. لأنها الحقيقة.. مجرد الرغبة الشديدة التي أصابتني مؤخرا بالخروج من القوقعة التي عزلت نفسي فيها عن العالم لألتقي بشخص أستطيع أن أثق به.. لا أعرف لماذا طرأت أنت في ذهني حينها كونك هادئاً كتوماً تعيش في عزلة وكوني أعرف بريدك الإلكتروني من خلال مذكراتك التي قرأتها أكثر من مرة.. فراسلتك وأقنعتك

لحسن الحظ أن تزورني.

تنهدت بعمق وقلت لها ما معناه أن كلي آذان صاغية.. لتسكت طويلا وتتنهد بدورها.. ثم سمعت حركة ما من جانبها توحي وكأنها تعدل من طريقة جلوسها لمزيد من الاسترخاء.. يبدو أنها ستلقي على مسامعي قصة طويلة للغاية.. لذا.. فلتسمحوا لي أن أستمع إليها معكم.. ولنترك لها جميعا المجال كاملا لتتحدث دون مقاطعة.

((أشكرك كثيرا على حضورك يا (خالد).. وأنا أرحب بك مرة أخرى في شقتي التي أعشق كل زاوية منها وأعتبرها أجمل مكان في الكون.. كما أكرر اعتذاري الشديد لهذا الظلام الحالك الذي قد تبدده قليلا تلك الشمعة الموجودة في ركن الصالة حتى يسمح لك نورها بمعرفة مكانك في هذا العالم دون أن تكشف هويتي.. دعني أخبرك قبل كل شيء أنني مستمتعة كثيرا للقائك بعد أن قرأت مذكراتك وشعرت للحظة وكأنني سافرت في ثنايا عقلك واكتشفت عالمك الذاتي.. ربما لهذا تكبدت العناء وطلبت لقاءك آملة أن تنشر قصتي في مذكراتك.. آملة أيضا أن تكون مستمتعا بهذه الأجواء.. خاصة مع مفردات الغموض الشهيرة التي نعيشها في هذه اللحظة.. الظلام.. البرد.. الأمطار التي تهطل في الخارج.. أنا عن نفسي مستمتعة جدا.. وواثقة أنها ليلة لن أنساها مدى الحياة.

هل قصتي غريبة؟!.. هل هي مرعبة؟!.. ربما لن تبدو لك كذلك مقارنة مع كل التجارب التي قمت بسردها لقرائك خلال السنوات الماضية.. لكنها بالنسبة لي أهم قصة في حياتي.. بل هي كل تفاصيل حياتي التي ستخلو من أي تفاصيل أخرى.. فالناس تعيش قصة محددة في طفولتها.. ثم قصة فترة الدراسة.. وقصة أخرى بعد التخرج والعمل والزواج.. إلخ.. أما أنا فقصتي واحدة.. واحدة فقط.. هي التي سأقصها عليك الآن.

إنني امرأة في الـ41 من العمر.. أعيش منذ سنوات في هذه الشقة ولا أغادرها أبدا لأسباب ستعرفها لاحقا.. لذا لن أبالغ لو قلت أن شقتي هذه هي كل عالمي.. لقد قرأت ذات مرة عن فوبيا الخوف من النسيان ([15]).. أعتقد أنني أعاني من الفوبيا النقيضة إن كان لها وجود أصلا.. فأنا أريد أن ينساني العالم.. أريد أن أعيش في ركن مظلم لا ينظر إليه أحد.. أرجوك لا تشعر بالأسف نحوي ظنا منك أن حياتي حزينة تقطر كآبة.. إنها ليست كذلك أبدا.. فهنا أجلس أمام شاشة التلفزيون أشاهد العالم كله وأستخدم الانترنت بكثافة كونه مدخلي الآخر على العالم.. أدخل عشرات المواقع يوميا وأعثر على إجابات لكل تساؤلاتي التي تصطرع في ذهني دوما حول الإنسان.. ذلك الكائن الذي لن يتوقف يوما عن إبهاري بغرابة أطواره وتنوع أفكاره.. وأحيانا كثيرة تزيدني الإجابات التي أعثر عليها ارتباكا وتجعلني أبحث عن إجابات أخرى.. وهكذا.

لقد بدأت قصتي في مرحلة طفولتي.. وتحديدا في عام 1976.. مع ذروة نهضة (الكويت) حين بدأنا نلمس ثمار النفط على أرض الواقع من إنشاء المدن والمستشفيات والمناهج التعليمية الحديثة وكل ما يشعرك أنك في بلد عصري.. كانت (الكويت) حينها دافئة.. حميمة إن كنت تفهم ما أعني.. وكان المواطن الكويتي بسيطا للغاية لكنه - وبنفس الوقت - مثقف للغاية أيضا.. فلا يخفى عليك كيف كان المسرح والفن والثقافة آنذاك.. أتذكر جيدا تلك الفترة رغم صغر سني.. خاصة حين انتقلنا إلى منزلنا الجديد في منطقة (كيفان) وتركنا بيت جدي القديم.. كنت في السادسة من العمر آنذاك.. سعيدة للغاية بأننا انتقلنا إلى مكان أشبه بالفندق قياسا إلى بيت جدي.. بل ولا زلت أتذكر لحظة خروجنا من سيارة النقل التي تحمل عفشنا.. وكيف كنت أحمل دميتي الصغيرة التي لم تكن تفارقني أبدا كحال معظم الفتيات الصغيرات.

هذا اليوم تحديدا ملتصق تماما في ذاكرتي وأسترجع لحظاته دوما.. لأن أبي قد توقف حال نزولنا من السيارة.. وذهب ليلقي التحية على جارنا الذي انتقل للإقامة في بيته مع أفراد عائلته قبلنا بأسابيع قليلة فحسب.. حيث تبادلا عبارات المجاملة التي لم أفهم منها شيئا.. بل ولم أسمع منها حرفا أيضا.. لأن ذلك الصبي قد استحوذ على كل اهتمامي.. أتحدث عن ابن جيراننا.. صبي جميل للغاية عرفت فيما بعد أنه يكبرني بعام واحد فقط.. كان أبيض البشرة لدرجة ملفتة للنظر.. شعره داكن كسواد الليل انسدلت خصلاته الجميلة على جبهته حتى كادت أن تغطي عينيه.. فبدا لي كدمية جميلة شعرت برغبة عارمة في الاحتفاظ بها!!!.. رحنا نحدق ببعضنا وكل منا ملتصق بأبيه بخجل كحال معظم الأطفال.. يحدث كل هذا وأبي مشغول بالحديث مع جارنا.. قبل أن تقترب منا زوجة جارنا وتذهب لإلقاء التحية على أمي وتغرقان معا في حوار آخر طويل نسبيا.. إلى أن انتهى كل هذا لنتجه جميعا إلى الداخل وأنسى بعدها بلحظات كل ما يتعلق بذلك الصبي وأنا أرى بيتنا الفاخر الذي سأعيش فيه إلى الأبد كما بدا لي في ذلك الوقت.

بدأنا بالاستقرار شيئا فشيئا مع مرور الأيام حيث كنت أقضي معظم وقتي في تلك الفترة الجميلة من الصيف في اللعب مع شقيقي الذي يكبرني بحوالي 4 سنوات.. وخلال تلك الفترة أيضا.. بدأت العلاقات الجميلة تمتد بيننا وبين جيراننا.. إذ بدأت أمي تزورهم وتأخذني معها أحيانا.. وبدأوا هم بالمقابل بزيارات مماثلة.. أنت تعرف كيف هي مرحلة الطفولة حين تلتقي بطفل الجيران الذي لا تعرف حتى اسمه.. لكنك بعدها بدقائق تجد نفسك تلعب معه وكأنه أقرب أصدقائك.. سبب ذلك برأيي هو أنه لا يوجد أي تكلّف من أي نوع.. فكل ما تفعله في طفولتك هو أن تكون على طبيعتك فحسب.. وهذا أروع ما بمرحلة الطفولة.

هكذا بدأت الصداقة البريئة بيني وبين ابن جيراننا.. ذلك الصبي الجميل ذو الشعر الأسود الداكن الذي عرفت أن اسمه (يوسف).. فأصبحنا صديقين نلعب مع بعضنا طوال الوقت تقريبا كوننا في سن متقارب.. فإما أن يكون هو في بيتنا أو العكس.. كان يسيطر علي شعور قوي بالألفة حين أكون معه.. هل ستكون مبالغة لو قلت أنني -وبهذه السن الصغيرة- شعرت بأن ذلك الصبي سيبقى صديقي إلى الأبد؟!.. أتذكر أنني كنت أبكي حين تمنعني أمي من زيارته بسبب ارتباط عائلي أحيانا أو لخوفها من أن أسبب الملل لوالدي (يوسف).. وكان هو يشعر بذات الشعور.. إذ أخبرني أكثر من مرة أنه يضطر أحيانا للخروج مجبرا مع والديه لزيارة أقاربه.. وهو لا يريد ذلك.. بل يفضل أن يبقى معي لأنني صديقته الوحيدة ولا يريد أصدقاء آخرين غيري.. وأخبرني أيضا أنه يحبني كثيرا.. ليس الحب بمفهوم البالغين بالطبع.. بل حب الطفولة النقي الطاهر.

أيام جميلة كنا نقضيها معا فلا يوجد ما يميزها سوى اللعب والمتعة البريئة.. لأن القلوب كانت صافية آنذاك.. وكان الكبار يدركون ذلك جيدا ويسمحون لنا باللعب معا.. على عكس ما يحدث الآن حين ترى الكثير منهم يفصلون بين الولد والبنت وهما لا يزالان في مرحلة رياض الأطفال.. أتذكر جيدا أيضا حين بدأ العام الدراسي وانتقلت للصف الأول ابتدائي آنذاك.. حين بدأت زياراتنا لبعضنا تقل تدريجيا وتقتصر فقط على عطل نهاية الأسبوع.. واستمر الحال على ما هو عليه في السنوات القليلة التالية التي لا يوجد الكثير ليقال بشأنها.. سوى أننا كبرنا ووصلت إلى سن التاسعة في عام 1979.. حين بدأت الحياة من حولي تتغير!!!.. كيف؟!!!.

كان هذا حين أخذتني أمي إلى غرفتها ذات مرة وراحت تحدثني بطريقة غريبة لم أعهدها من قبل.. إذ أخبرتني أنني في طريقي حاليا إلى مرحلة النضج.. وأنني سأتحول قريبا من طفلة صغيرة إلى فتاة كبيرة لها التزاماتها الأخلاقية والأدبية و.. إلخ من مقدمات طويلة هدفها الوصول إلى أنني كبرت

الآن ولا يحق لي اللعب مع (يوسف).. فلا يجوز للفتاة أن تصادق الأولاد.. وأن علي أن أقضي وقتا أطول بالمقابل مع قريباتي من هن في مثل سني.. أو أن أوطد علاقاتي مع زميلاتي في المدرسة.

كيف كانت ردة فعلي؟!.. هي أسهل وأول رد فعل للطفل حين تفرض عليه والدته شيئا رغم إرادته.. البكاء بالطبع!!!.. فرغم سني الصغيرة.. إلا أنني شعرت بلوعة غريبة في أعماقي.. لوعة لم أفهمها.. لكني فهمت بعد سنوات أنها كانت حباً مبكراً!!!.. هل هناك شيء كهذا أصلا؟!.. هل يوجد هناك (حب مبكر) ؟!.. لا أعلم.. هذا مصطلح من اختراعي.. لكنه التفسير الوحيد لمشاعري آنذاك.

أتذكر أنني حاولت حينها أن أقنع أمي بطريقتي الطفولية أن (يوسف) صديقي وأنني (أحبه) كثيرا.. لكنها أخرستني بطريقة صارمة لم أعهدها وهي تقول بشيء من الحدة أن الفتاة لا يجدر بها أن تستخدم ألفاظا كهذه.. قالتها وخرجت من غرفتي غاضبة.. أما أنا فغرقت في دوامة من القلق.. كيف تطلب مني أمي ألا أرى أقرب أصدقائي إلي في هذا العالم؟!.. ولماذا؟!.. نحن لم نرتكب أي خطيئة.. لكن عقلي الصغير لم يعثر على إجابة لتساؤلاتي تلك.. إلا أنني ظللت أطرحها رغم كل شيء غير مقتنعة بما قالته أمي.. كانت المرة الأولى في حياتي التي أنام فيها والقلق ينهش قلبي.

في اليوم التالي فحسب.. كان أحدهم يضرب جرس الباب.. ذهبت لأفتح له.. وإذ به (يوسف) وقد جاء لزيارتي بعد الانتهاء من فروضه المنزلية.. كان يبتسم وهو ينظر إلي متوقعا أن أسمح له بالدخول واللعب معي كما نفعل عادة.. لم أعرف ما أقوله له.. هل أخبره أن أمي تمنعني من مصادقته؟ !!.. هذا ما كان يفترض بي فعله كما طلَبَت مني.. لكني تصرفت بعناد غريب لم أتوقع أنني أمتلكه!!!.. إذ دعوته إلى الداخل مستغلة تماما فرصة زيارته وآملة أن تشعر أمي بالإحراج فتسمح له بالبقاء.. سأنعم حينها بساعات قليلة معه دون الوضع بالاعتبار ما ستفعله أمي بعد ذلك.

لكني كنت مخطئة في ظني!!!.. إذ لمحت الضيق واضحا على وجهها وهي تراه يدخل البيت برفقتي.. فتنحنحَت وطلبت من (يوسف) برقة لا تخلو من الحزم أن يذهب إلى بيته وألا يزورنا مرة أخرى إلا مع والديه!!!.. قالتها وسط نظرات اعتراض واضحة منه.. لكنه لم يملك سوى أن يستمع لأمي التي لم تكتفِ بهذا.. بل اتصلت بأم (يوسف) حال خروجه متخاذلا مستغربا.. وراحت تتحدث معها أمامي وتكرر كلاما شبيها بالذي قالته لي.. فقد كبرنا الآن.. ولا يصح أن يزورنا ولدها ليلعب معي.. مع كلام كثير لم يخرج عن هذا المضمون أصابني بسهام مسمومة.. خاصة حين لاحظت من سير المكالمة أن أم (يوسف) متفقة تماما مع أمي على كلامها!!!.

لقد كانت هذه أسوأ ليلة في حياتي.. مشاعري تلتهب.. قلبي يحترق وأنا أتساءل بيني وبين نفسي مرة أخرى: ما هو الخطأ الذي ارتكبته مع (يوسف)؟ !!.. نحن مجرد صديقين نحب بعضنا ونهتم لأمر بعضنا.. فلم يفعلوا بنا كل هذا؟ !!.. أعترف أنها المرة الأولى التي شعرت فيها بالظلم.. وهو شعور مقيت لا يطاق جعلني أدخل في نقاشات طويلة مع أمي.. فكانت هي الطرف الرابح دوما بسبب صغر سني.

مرت بعدها الأيام حزينة كئيبة جدا دون أي تغيير يذكر بعد هذا الانفصال الإجباري عن (يوسف).. فأذهب إلى المدرسة بانكسار واضح وقد ابتعدت تماما وانعزلت عن زميلاتي.. لأعود بعد ذلك إلى البيت وأنجز فروضي المنزلية مجبرة بسبب أمي التي كانت تجلس معي ولا تتركني إلا حين التأكد من إنهائها.. فأحظى بعدها بساعات من العزلة في غرفتي لا أفعل فيها شيئا سوى

البكاء.. ذلك البكاء الصعب المقيت الذي يجعلك عاجزا عن التنفس.. وقد لاحظ أبي اضطرابي النفسي هذا في الأسابيع القليلة التي تلت توقفي عن تبادل الزيارات مع (يوسف).. فجلس معي محاولا محادثتي حول الأمر.. إذ بدا واضحا أنه كان على علم بكل شيء طوال الوقت.. وقد اختار التدخل هذه المرة كما يبدو بعد أن رأى سوء حالتي النفسية.

كان حديثه مملا لم يختلف كثيرا عما قالته أمي.. حتى أنني كنت أسرح في ذهني وأنا أنظر إليه.. منتظرة فقط أن ينتهي من محاضرته ويخرج من غرفتي.. لكنه بدأ يتحدث أيضا عن هزالي الشديد وقلة طعامي ونومي.. نعم.. لقد ذبلت كثيرا.. وأصبحت أتعامل مع العالم بطريقة آلية وأنا أفكر بأقرب صديق لي في هذا العالم.. كنت واثقة أن لدي قلباً ينبض بالحياة.. لأنني شعرت به آنذاك وهو يتمزق!!!.

ظللت على هذا الحال قرابة الشهرين.. أتساءل دوما عن أحوال (يوسف) وقد انقطعنا تماما عن بعضنا.. فلا أراه أو أصادفه سوى في فترة ذهاب كل منا إلى مدرسته أو أثناء عودتنا.. فيلقي أبي التحية على أبيه.. في حين ننظر نحن إلى بعضنا بألم ولوعة.. كان واضحا أنه متأثر كثيرا لفراقي.. ولا أنكر أن هذا كان يسعدني ويخفف من حزني قليلا.. و.. أمام تلك الكآبة التي ألقت بظلالها على تلك الفترة من طفولتي.. سمعت أمي ذات يوم وهي تتحدث مع أبي.. وتخبره أنها تحدثت مع أم (يوسف) وأخبرتها الأخيرة أن ولدها أيضاً قد ذبل كثيرا ويبدو حزينا شاحبا طوال الوقت حيث ابتعد عن كل أصدقائه وزملائه في المدرسة.

كنت أسترق السمع.. وأسمع أبي يقول مؤكدا أن ما يحدث لي ول. (يوسف) من حزن واكتئاب هو وراء ابتعادنا القسري عن بعض كما هو واضح.. فراحت أمي تحاول إقناعه أن نزور جيراننا ليلتها ليرون تأثير ذلك علي حتى يتمكنا من فهم حجم المشكلة.. آملين أن يكون ما أمر به لا يتجاوز نزوة من نزوات الطفولة وستزول مع مرور الأيام.. ويبدو أن أمي تمكنت من إقناعه.. ففي تلك الليلة.. كدت أن أطير فرحا حين دخلت غرفتي لتقول مبتسمة:

-سنزور جيراننا.. وربما ستحصلين على بعض الوقت للعب مع (يوسف).

أعتقد أن هذه كانت أسعد لحظاتي في تلك الأيام كوني سأزوره لأول مرة منذ أكثر من شهرين.. ولا أنكر لو قلت أنني شعرت فجأة أن الحيوية والنشاط قد عادا فجأة إلى جسدي الصغير.. خاصة عندما توجهنا جميعا بالفعل إلى بيت (يوسف).. حيث فتح والده الباب ورحب بنا كثيرا.. ثم تبعناه إلى الساحة الداخلية وأنا أنظر إلى كل ركن منها بشوق وحنين وكأنني أستذكر أجمل أيام عمري.. فشهران هي فترة طويلة جدا بالنسبة لفتاة لا يتجاوز عمرها ال.9 أعوام.. و.. وقفنا متقابلين أخيرا.. أنا و (يوسف).. هل.. هل سيخرج قلبي من جسدي؟!.. ربما.. إذ كنت أشعر به ينبض بعنف شديد.. ثم سمعت أمي تقول له بحنان:

-لقد نحلت كثيرا يا ولدي.. وكأنك لم تأكل منذ مدة طويلة!!!.

لتضحك والدته بحرج وهي تقول:

-وكأنك أخذت الكلمات من فمي!!!.. كنت سأقول نفس الكلام عن (أحلام).

كان غريبا للغاية ألا ننتبه أبدا لما قاله أبوانا.. فقد تجاهلنا كل كلامهم.. إذ اقترب مني (يوسف) ليمسك بيدي ويأخذني معه إلى غرفته.. لا أعرف ماذا كانت ردة فعل الجميع تجاه تلك الخطوة.. لكن أتذكر أن الهدوء قد عم أرجاء المكان فجأة ونحن نبتعد عنهم.. و.. ما إن دخلنا غرفته.. حتى

اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول:

-(أحلام).. كيف حالك؟!!.

قالها وهو يمسك وجهي براحتي كفيه!!!.. فنظرت إليه بجسد يرتجف وعقل لا يزال عاجزا عن فهم مشاعري نحوه.. فكل ما كنت أعرفه هو أنه صديقي وأنني أفتقده كثيرا.. كانت هذه المرة الأولى التي يخبرني فيها أنه يريدني أن أكون صديقته إلى الأبد ولا يريدني أن أفارقه.. لا تنسى أنني أنتمي إلى جيل لم يتأثر بالمسلسلات والأفلام والانترنت وثورة الاتصالات.. فلم أكن أعرف مصطلحات الحب التي يعرفها جيدا أبناء هذا الجيل.. لذا كانت المشاعر التي نعيشها غريبة إلى حد كبير بالنسبة لنا.. لكنها ممتعة جدا أيضا.. فقد جلست معه في غرفته دون أن نلعب كما كنا نفعل في الماضي القريب.. بل رحنا نتحدث فقط.. نتحدث عن كل شيء تقريبا دون أن نشعر بمرور الوقت.. قبل أن نفاجأ بوالدته وهي تدخل الغرفة وتطلب مني بابتسامة عريضة اللحاق بوالديّ.. فنهضت من مكاني ونظرات اللوعة واضحة في عيني.. لأعود بعدها إلى البيت ظنا مني أن الأمور ستعود إلى مجاريها وأنني سأتمكن من رؤية (يوسف) كل يوم بعد الآن.. تماما كما كنا نفعل في الماضي.

لكن.. لقد كنت مخطئة دون شك.. فرغم سعادتي وضحكاتي البريئة في البيت ليلتها بعد عودتنا من زيارتهم.. إلاّ أنني كنت أرى نظرات القلق في عيني أبي وهو يتحدث مع أمي بالألغاز ويستخدمان مصطلحات لم أفهمها حينها.. كانا يقولان كلاما عن أن الموضوع يستحق وقفة جدية وأن هذه العلاقة أصبحت مخيفة لا بد أن يتدخلا بقوة ليمنعاها قبل أن تفلت الأمور من أيديهما!!!.. فكنت أسأل ببراءة عما يعنيان دون أن أحصل منهما على إجابة.

في اليوم التالي لزيارتي تلك.. لاحظت أن أمي تلح علي كي أخرج معها بعد الانتهاء من فروضي المنزلية لأخذي إلى أحد المطاعم القليلة التي كانت تنتشر في (الكويت) آنذاك.. ورغم أنني أخبرتها برفضي القاطع كوني أريد أن أذهب لزيارة (يوسف) ظنا مني أن الأمور قد عادت إلى طبيعتها.. إلا أنها أخبرتني أنني أستطيع زيارته لاحقا.. نعم.. كانت هذه خطتها الجديدة التي رسمتها مع أبي.. إذ يبدو أنهما اتفقا على إشغال وقتي كي لا أرى (يوسف) أبدا.. ويبدو أنهما نجحا في ذلك إلى حد ما في البداية.. فقد تمكنا من خداعي بسبب صغر سني.. وظلا يطلبان مني أن أخرج معهما في فترات متقاربة شبه يومية بعد الانتهاء من فروضي المنزلية.. وفي كل مرة كنت أتحدث فيها عن زيارتي لـ(يوسف).. يخبراني باطمئنان بأنني سأتمكن من ذلك لاحقا.

لقد كانا يسمحان لي بزيارة بيته أحيانا بالفعل.. ولكن على فترات تزداد تباعدا يوما بعد يوم.. تماما كما يفعل الأطباء مع مدمن المخدرات.. إذ يقومون بتعريضه لجرعات أقل.. وأقل.. فأقل.. إلى أن يتعافى تماما من الإدمان.. الغريب أن خطتهما نجحت إلى حد كبير.. فرغم أن زياراتنا المتبادلة قلّت كثيرا.. إلا أن علمي بأنني سأتمكن من لقائه في أي وقت أشعرني بالكثير من الاطمئنان.. وقد عرفت فيما بعد أن هناك اتفاقا ما قد تم بين أسرتينا لتقليل لقاءاتنا قدر الإمكان آملين أن ننسى بعضنا مع مرور الأيام.. خطة محكمة للغاية خدعتنا بالفعل في طفولتنا.. لذا ظلت الأمور معلّقة بهذه الصورة شهورا طويلة تجاوز فيها عمري العاشرة.. حيث قلت زياراتنا وأصبحت لا تتجاوز اللقاء الواحد في الشهر أو أحيانا أقل.. إلى أن جاء الحل أحد أيام الخميس وفي فترة الظهيرة كما أتذكر.. عندما رن جرس هاتفنا.. وقد كنت أنا من أجاب على الاتصال لحسن الحظ.. و:

-ألو.. (أحلام).. أنا (يوسف).. أرجوك لا تتحدثي لأنني قد أضطر لإنهاء المكالمة بأي وقت إذا

كشف أحدهم اتصالي بك.. اذهبي إلى سطح منزلك اليوم في منتصف الليل.. سأكون هناك.. سنلتقي!!!.

قالها وأغلق الخط مباشرة دون أن ينتظر ردّي.. ولا يمكنك أن تتصور ردة فعلي حينها يا (خالد).. لأول مرة في حياتي تتضارب مشاعري بهذه الصورة وأشعر بتوتر غريب في أعماقي ونشوة هائلة لا تصدق.. خاصة وأن الاتصالات الهاتفية لم تكن أمرا معتادا في تلك الأيام.. هل هو حب المراهقة الذي يتحدثون عنه؟ !!.. وهل أنا في سن المراهقة أصلا؟!.. لا أعلم.. كل ما أعرفه أنني أحبه بالفعل.. نعم.. أنا أحب (يوسف)!!!.. الغريب أنني شعرت بفرحة عارمة عندما طرأ ذلك في ذهني.. وكأنها حقيقة اكتشفتها للتو.

مر ذلك اليوم ببطء شديد وأنا أترقب منتصف الليل للقاء (يوسف) شاعرة بأنني سندريلا التي سمِعت قصتها من أمي عشرات المرات.. فتوجهت بعد هذه المكالمة المقتضبة مباشرة إلى غرفتي محاولة أن أقتل الوقت بقراءة بعض القصص وأنا أعد الدقائق واللحظات منتظرة موعد لقائنا.. ولا أنكر هنا شعوري الشديد بالخوف حينها حيال ما سيحدث.. فهذه المرة الأولى التي أفعل فيها شيئا سيثير غضب والديّ بكل تأكيد.. إنني أواجه صعوبات عديدة لملاقاته أمام مسمع ومرأى الجميع.. فماذا سيقولان الآن إذا كشفا لقاءنا السري؟!!.

عموما - ورغم كل المخاوف والقلق - تم لقاؤنا الأول بسهولة بالغة دون مشاكل تذكر.. عندما صعدت إلى سطح بيتنا في الموعد المحدد قلقة مترقبة قبل أن ألمح (يوسف) أخيرا وهو يتسلق السور القصير الذي يفصل بين سطحي بيتينا.. حيث التقينا لأول مرة منذ مدة بدت لي طويلة للغاية.. فجلسنا بعدها ونحن مستندون إلى الجدار ننظر إلى بعضنا بحنان جارف.. وكأن أعيننا تشعر بالظمأ لبعضنا بعضاً.. ولا أبالغ لو قلت أننا اكتفينا بذلك ولم نتحدث كثيرا!!!.. بل ولم نفترق ليلتها إلا مع سماعنا صوت أذان الفجر الأول.. مما أشعرنا بالخوف وبضرورة عودتنا قبل أن يستيقظ أحد ويلحظ غيابنا.. كان أجمل ما في لقائنا هذا حين سألني (يوسف) فجأة وببراءة:

-ماذا تريدين أن تصبحي حين تكبرين؟!.

قلت ما تردده أي فتاة عادة:

-دكتورة!!.

سألته بالمقابل:

-ماذا عنك؟!!.

رد بسرعة:

-زوجك.. أريد أن أصبح زوجك!!!.

احمر وجهي من شدة الخجل.. ودمعت عيناي تأثرا بكلامه هذا وأنا أعيش تجربة فريدة من نوعها بالنسبة لفتاة في مثل سني.. لذا فقد انجرفت وراء تلك المشاعر وأخبرته بلوعة أنني أحبه بالمقابل وأريد أن أكون زوجته في المستقبل.. كانت هذه المرة الأولى التي أمسكنا فيها أيدي بعضنا بطريقة مختلفة تماما عن أي مرة أخرى!!!.. إذ شعرت حينها بتيار دافئ يسري في جسدي بأكمله.. تيار لم أشعر به من قبل.. بل وظننت أنه إذا أمسك بيدي لفترة طويلة فإننا سنختفي معا.. نختفي لنذهب إلى أين تحديدا؟!.. لا أعلم.

استمرت لقاءاتنا هذه شهورا طويلة في الخفاء دون علم أحد.. كنا نلتقي في أوقات متأخرة من ليالي (الخميس) وبعد نوم الجميع.. حيث نجلس على سجادة صغيرة كان يجلبها معه.. نتأمل السماء والنجوم بهيام.. نتحدث ونحن نمسك بأيدي بعضنا طوال الوقت.. أسمعه يثير خيالي حين يخبرني عن نيته بأخذي بعيدا حين نكبر إلى بيت موجود على ضفاف نهر وتنمو من حوله الأشجار.. تماما كتلك الصور التي نراها في مجلات الأطفال آنذاك.. يحدث كل هذا بيننا وقد ظن والداي أن علاقتي ب. (يوسف) أصبحت في طي النسيان كوني لم أعد أتحدث عنه أو عن رغبتي في زيارته.

لكن.. أنت تعلم بالطبع أن لقاءات كتلك التي تحدث في الخفاء باستمرار سيتم كشفها إن عاجلا أم آجلا.. هذا ما حدث بالفعل بعد قرابة السنتين كبرنا خلالهما وبدأنا نفهم مشاعرنا تلك جيدا.. حتى تلاشى عندنا الشعور بالخوف من كشف أمرنا مع مرور الأيام وضعف لدينا عامل الحذر كثيرا.. كان هذا في منتصف عام 1981 وفي ليلة من ليالي الصيف الجميلة.. حين كنت أجلس مع (يوسف) فوق سطح منزلنا وسط الظلام غارقين تماما بمشاعر الحب.. حين سمعنا فجأة صوتاً غريباً بدد سكون الليل.. أحدهم يصعد درجات السلم متجها إلى باب السطح.. وكأن أحدهم انتزعني من الجنة وأعادني فجأة إلى عالم الواقع!!.

نظرت حينها إلى (يوسف) بذعر.. أما هو فقد اتسعت نظراته فجأة وكأن ما حدث غير متوقع على الإطلاق.. فأمسك بيدي ونهض بسرعة ليطوي السجادة الصغيرة التي جلسنا عليها.. ثم اختبأنا معا خلف أحد الصناديق الموجودة بإهمال فوق سطح البيت وقلوبنا تنبض بعنف غريب.. لم أشعر بالخوف من قبل كما شعرت به آنذاك.. الغريب أن (يوسف) أحاطني بذراعيه وكأنه يحميني من ذلك القادم.. حتى أنني تذكرت ما فكرت به يوما حين تساءلت: ((لو أمسك (يوسف) بيدي وأغمضنا عينينا لبضع دقائق.. فهل هناك احتمال أن نختفي؟!!)).

كان هذا ما فعلته.. فقد أغمضت عيني بقوة وهو يحيطني بذراعيه.. أتمنى أن نختفي.. أتمنى أن نختفي.. صوت الأقدام يقترب منا.. لقد كشف أبي غيابي أخيرا وها هو الآن يبحث عني دون شك!!!.. أسمع الأصوات تقترب.. وتقترب.. وأنا أغمض عيني أكثر.. وأكثر.. قبل أن يسطع الضوء بوجهينا فجأة!!!.. لم يكن أبي.. بل شقيقي الذي راح ينظر إلينا بذهول غير مصدق أن شقيقته الصغيرة مرتبطة بفتى!!!.. المعذرة كوني لم أتحدث عن شقيقي كثيرا.. فلم يكن له أي دور في قصتي قبل ذلك اليوم المشؤوم.

و.. تعرف بالطبع غيرة الشباب ومسألة الشرف التي يصدعون رؤوسنا بها.. وتعرف أيضا ما يفعله أحد منهم لو رأى شقيقته مختبئة مع فتى خلف أحد الصناديق فوق سطح البيت.. حسنا.. لك أن تتخيل.. فقد تطاير شرر الغضب من عينيه.. وانقض على (يوسف) فجأة لينهال عليه ضربا وركلا.. لا تنسَ أن شقيقي يكبرني بأربعة أعوام تقريبا.. فكان حينها في ال.16 من العمر.. وهو أكبر سنا وجسدا من (يوسف).. لذا وجدها فرصة رائعة ليستعرض قواه.. وليصبح الشجار الذي شق سكون الليل من جانب واحد.. والواقع أن ما حدث لم يكن شجارا بالمعنى المفهوم.. بل مجرد شخص (يَضرب).. وآخر (يُضرب) باستسلام دون أن يدافع عن نفسه!!!.. فكنت أرى بذعر حبي الأول والوحيد في هذا العالم يُضرب بهذه الطريقة وأنا عاجزة عن فعل أي شيء.. وبدا أن شقيقي لن يتوقف إلى أن يموت (يوسف) بين يديه.. حتى أنني صرخت بلوعة:

-أرجوك.. ارحمه.. أرجووووووك!!!.

لتهوى صفعة قوية على خدي الأيمن.. قبل أن يمسكني شقيقي من شعري ويجرني إلى البيت صارخا ب. (يوسف) أن يتسلق سور السطح ويعود إلى بيته وهو يقسم أنه سيبلغ الشرطة وسينهي حياته.. وسيقتله و.. إلخ!!!.

لم ينطق (يوسف) بكلمة طوال الوقت.. إذ كانت عيناه تبحثان عن.. عن.. لا أعرف.. هو نفسه لم يكن يعرف.. كان فقط غير مصدق أنه يتعرض لموقف كهذا وأن تهان كرامته بهذه الصورة أمامي.. أما أنا.. فصراخي الذي شق سكون الليل لم يتوقف إلا مع الصفعة الثانية التي هوى بها شقيقي على وجهي.. و.. لا بد من كل هذه الضجة أن توقظ والديّ اللذين هرعا بدورهما إلى سطح البيت قبل نزولنا.

لقد تطلب الأمر بضع دقائق ليستوعب والداي ما حدث.. لكن الصورة كانت بليغة لا تحتاج إلى شرح.. لذا وبّخ أبي شقيقي كثيرا على ضربي بهذه الطريقة البشعة.. وأمره بالعودة إلى غرفته.. ليمتثل له وهو يغمغم بكلمات غاضبة لم أفهم منها شيئا.. ثم التفت إلى (يوسف) وأمره بقسوة أن يعود إلى بيته.. فنظر إلي المسكين بثيابه التي تمزقت والدماء التي تسيل من أنفه وأسنانه.. ليعود أدراجه ويتسلق السور الصغير بشيء من الصعوبة بسبب الآلام التي يعانيها دون شك.. نظر إلي أبي بعدها بصرامة شديدة تنذر بالويل.. وأشار إلي بيده أن أعود إلى غرفتي دون أن يقول شيئا.. مما جعلني أقشعر خوفا من عقابه المنتظر!!!.

لا أعرف الوقت الذي أمضيته متكورة ليلتها في غرفتي تحت اللحاف وأنا أبكي.. وصوت جهاز التكييف القديم المزعج يجعلني عاجزة تماما عن سماع ما يجري في الخارج.. ثم.. أحدهم يفتح الباب ببطء شديد ليدخل نور الصالة بأكمله إلى غرفتي.. حاولت أن أتصنع النوم عالمة أنني لن أخدع من دخل للتو.. فارتجافي تحت اللحاف كان واضحا.. ولم أشعر إلا بيد تمسح على رأسي بحنان شديد وصوت أبي يقول هامسا:

-لا تخشي شيئا يا صغيرتي.. لن يؤذيك أحد.. فقط أخبريني.. ماذا كنت تفعلين مع (يوسف) فوق سطح البيت؟!!.

أزحت اللحاف عن وجهي ونظرت إليه بانكسار شديد.. لأقول كلمة واحدة فقط بصوت مرتجف:

-نتحدث.

سألني بتوتر:

-فقط؟!!!.

هززت رأسي موافقة.. فبدا لي وكأنه تنهد بارتياح.. ليقول بلهجة الحكيم:

-يا صغيرتي.. يجب أن تعديني أنك لن تقابلي (يوسف) بعد اليوم.. فما فعلتِه غير مقبول أبدا.. عموما سأنسى تماما ما حدث وسأقف إلى جانبك ولن أقسو عليك.

ثم تجهمت ملامحه فجأة وهو يشير إلي بإصبعه ليقول:

-لكن.. لو تكرر الأمر فلن أسامحك أبدا.. وسيكون عقابك قاسيا!!!.

قال هذا وهو ينظر إلي بحزم وكأنه يطلب مني موافقته على كلامه.. كيف يريدني أن أبتعد عن (يوسف)؟ !!.. كيف؟ !!.. إنه حياتي بأكملها.. فكيف سأبتعد عن حياتي؟ !!.. لكن.. وجدت نفسي أومئ برأسي موافقة بخوف.. ليتنهد أبي بحرارة ويمسح على رأسي مرة أخرى.. قبل أن يخرج

من غرفتي تاركا قلبا محطما.

لقد شعرت حينها أنني لن أرى (يوسف) أبدا بعد تلك الليلة.. خاصة حين سمعت في اليوم التالي أن أباه قد ضربه بقسوة بعد أن سبب له إحراجا كبيرا أمام جارهم (أبي).. وأنه لن يسمح له أبدا بالخروج من البيت وسيقفل باب غرفته كل ليلة -كما يدعي -ليفتحها له في الصباح حتى يمنعه من التسلل أثناء نوم الجميع لملاقاتي!!!.

لذا فقد مرت أياما طويلة على تلك الحادثة انقطعت فيها أخبار (يوسف) تماما عني.. ولم أكن أراه سوى صباح أيام الدراسة حين يركب كل منا مع والده ليذهب إلى المدرسة.. فنتبادل نظرات قصيرة تفيض حبا.. هذا كل ما كنا نستطيع فعله!!!.. إنها بحق من الفترات الصعبة في حياتي حين أصبح دفتر مذكراتي هو صديقي الوحيد طوال أيام الدراسة.. فكنت أبوح له بكل مشاعري وأسراري.. ذلك الدفتر الذي لا زلت أحتفظ به بعد كل هذه السنوات.. إذ كنت أشعر أن علاقتي ب. (يوسف) مقدسة جدا يجب ألا تعلم عنها أحد من صديقاتي أو قريباتي اللاتي ضعفت علاقتي بهن كثيراً بسبب الحب الذي جذبني ناحية (يوسف) وأنساني كل شيء آخر.

عام 1985.. 4 سنوات أخرى مرّت.. لا يوجد فيها ما يستحق الذكر سوى وفاة جدتي رحمها الله والتي كانت تقيم عند عمي.. كنت قد بلغت ال. 15 من عمري وقد نسي الجميع علاقتي ب. (يوسف) وما حدث في تلك الليلة.. لكن قلبي ظل ملكا له رغم انشغالي بالدراسة والتغييرات التي يشهدها جسدي وعقلي بسبب سن البلوغ والمراهقة.. أعتقد أنه من العسير أن تزيل شخصا من ذاكرتك وأنت تراه كل يوم تقريبا أثناء ذهابك إلى المدرسة.. خاصة وأن الفتاة في مثل سني تبحث عن الحب.. وحب ابن الجيران هو أول ما يطرق بابها عادة.

لذا فقد طرأت في ذهني فكرة الاتصال ب. (يوسف) في أحد أيام الصيف من ذلك العام وبعد انقطاع طويل.. ربما هي تصرفات المراهقة الطائشة.. ربما هو الملل الذي جعلني أبحث عن الإثارة في حياتي.. وربما هي الرغبة أيضا في إحياء الحب القديم مرة أخرى.. خاصة وأن مشاعري لم تتغير أبدا ناحية (يوسف).. إنه الشخص الوحيد الذي أحببته.. وكل قصص الحب التي قرأتها والأغاني العاطفية التي استمعت إليها تذكرني به.. فكيف أنساه؟!!.

كانت الإجراءات الصارمة التي فرضها علي أبي بعدم استخدام الهاتف قد خفت حدتها كثيرا مع مرور السنوات ظنا منه أن ما حدث كان علاقة عابرة وانتهت.. لذا لم أجد صعوبة في الاتصال ب. (يوسف) بالطريقة التقليدية آنذاك قبل ظهور الهواتف النقالة وكاشف الرقم.. فكنت أتصل في بيته.. وعندما يرفع السماعة شخصا آخر غيره.. أقفل الخط.. ثم أجرب ذلك بعدها مرة ثانية وثالثة على أوقات متباعدة.. إلى أن سمعت صوته أخيرا وللمرة الأولى بعد أكثر من 4 سنوات من تلك الحادثة السوداء.

لا يمكن أن أصف لك مشاعري حينها.. كانت يدي الممسكة بسماعة الهاتف ترتجف بقوة.. ولن تصدق أبدا وقع المفاجأة علي حين بكى (يوسف) فور سماعه لصوتي!!!.. الغريب أنه لم يمهلني فرصة للحديث.. بل راح يخبرني عن لوعته واشتياقه وأنه لم ينسني لحظة واحدة طوال السنوات الثلاث الماضية!!!.. لكنه كان يخشى علي كثيرا من أبي وشقيقي.. لهذا لم يحاول الاتصال بي أبدا.. كان يتحدث بصوت نصف خشن بعد أن وصل إلى سن ال. 16 تقريبا ووقف على ذلك الحبل الفاصل بين مرحلة الطفولة والرجولة.. المهم أن مكالمتنا لم تطل كثيرا خوفا من كشف أمرنا.. إلا أننا قررنا أن نتواصل هاتفيا على الأقل.. وفي أوقات محددة يوميا بعيدا عن أعين أهالينا ورقابتهم..

أعترف أن الأمر لم يكن سهلا.. فأنت تتحدث عن هاتف أرضي يستخدمه جميع أفراد البيت كما كان الحال في تلك الفترة.. لذا ظلت اتصالاتنا محدودة للغاية.. وهذا ما جعلنا نفكر مرة أخرى في اللقاء فوق السطوح كما كنا نفعل في السابق.. إنها طبيعة بشرية معتادة.. فكل مرة تظن أنك ستكون أكثر حذرا من المرات السابقة!!!.

وبالفعل.. اتفقنا على كل شيء وبدأنا نلتقي سرا مجددا فوق سطح بيتنا.. فأنتظره في ليالي الخميس على أحر من الجمر وفي الواحدة فجرا بعد نوم الجميع.. ليتسلق هو فوق السور الفاصل بين البيتين.. لتلتقي أيدينا وتقول أعيننا قصائد في الحب.. أتذكر أنني بكيت كثيرا أثناء لقائنا الأول غير مصدقة أنني أرى (يوسف) مرة أخرى أمامي بعد تلك السنوات.. والدموع عادة تنهمر من العين حين تكون المشاعر أروع من أن نخبئها في قلوبنا.. فالمرء لا يتحكم في قلبه.. ليس من المفترض أن يفعل أصلا!!!.

و.. بالطبع أيضا.. لا بد أن تتكسر الأحلام على شواطئ الواقع كما يحدث دوما.. المشكلة أن هذه المرة أصبح كشف أمرنا أسهل بكثير كون شقيقي بات يسهر أحيانا في الخارج مع أصدقائه بعد أن كبر وتجاوز عمره ال 18 عاما وأصبح أبي يمنحه المزيد من الحرية.. فكان هذا يعني أنه يعود إلى البيت في وقت متأخر أكون متواجدة فيه مع (يوسف).. هذا خطأ وقعت فيه بسبب قلة الحذر مع مرور الأيام.

لا زلت أجهل بعد كل هذه السنوات كيف علم شقيقي بعدم وجودي في غرفتي بتلك الليلة رغم أنني كنت أقفل الباب بالمفتاح أثناء تواجدي على سطح البيت لأوهم الجميع أنني نائمة.. ولا يخفى عليك أيضا أن الفضيحة هذه المرة كانت أكبر بكثير كوني كبرت وأصبحت مسؤولة عن تصرفاتي.. لذا أقسم لك أن (يوسف) كاد أن يموت على يد شقيقي في حين لم يحاول هو حتى الدفاع عن نفسه.. وكأنه لا يمانع أبدا أن يموت من أجلي!!!.. لن أخوض في التفاصيل.. ستكون الأحداث مكررة وربما تشعرك بالملل.

لا يمكن أن أنسى الأيام التي تلت تلك الحادثة.. فقد أصبحت منبوذة تماما في البيت.. لا أحد يتحدث معي بعد أن جلبت العار لأسرتي كما قالت أمي!!!.. بل أن أبي فرض علي قوانين صارمة للغاية بعد أن صفعني لأول مرة!!!.. فكان أول ما فعله هو أخذ مفتاح غرفتي كي لا أقوم بقفل الباب أبدا!!!.. ثم منعني تماما من استخدام الهاتف حتى في الرد على الاتصالات.. وأقسم أنه سيقتلني في المرة القادمة لو كررت حماقاتي تلك على حد قوله.. لقد تغيرت نظرته لي كثيرا.. حتى تكاد لا تصدق أنه نفس الرجل الذي عاملني بحنان شديد عندما كشف أمري في المرة الأولى منذ بضع سنوات.. والواقع أنه لم يكتفِ بضربي وبتلك الرقابة الصارمة على حياتي.. بل قام بخطوة أكبر.. فبعد حوالي 6 شهور من تلك الحادثة.. فوجئت به يخبرني دون أن ينظر إلي بأنه قد اشترى بيت جديد!!!.. نعم باع بيتنا هذا الذي عشنا به سنوات طويلة ليشتري بيتا آخر في منطقة (العديلية).. ولم أكن بحاجة إلى ذكاء كي أعرف أن المقصود من ذلك هو إبعادي عن (يوسف) بعد أن أدرك أبي أن علاقتي به لن تنتهي أبدا وقد تقود إلى ما لا تحمد عقباه كما سمعته يقول لأمي!!!.

هل تظن يا (خالد) أن أبي قد بالغ في تصرفه هذا؟ !!.. لا.. لم يبالغ إطلاقا.. خاصة إذا أخبرتك أنه لم يقدم على هذه الخطوة إلا لأنني حاولت الانتحار مرتين تقريبا!!!.. لقد كنت أنتمي إلى ذلك الزمن الجميل الذي تبتلع فيه الفتاة 3 أقراص (أسبرين) وتنتظر الموت!!!.. قبل أن يكتشف العالم طرقاً أكثر تقدما كقطع أوردة المعصم أو القفز من الأماكن المرتفعة.. لم أكن أهتم كثيرا لموتي..

بل كنت أتمنى أن يقتلوني برصاصة منحوتا عليها اسم (يوسف) حتى يستقر اسمه في قلبي إلى الأبد.

المهم أنني عندما اكتشفت أن طريقة انتحاري الأولى سخيفة.. لجأت إلى طريقة أخرى أكثر جدية.. إذ ملأت معدتي بأقراص أدوية وجدتها في الثلاجة.. لكن أمي كشفت الأمر وقامت سريعا بوضع إصبعها في فمي لتجبرني على التقيؤ.. فكنت أتقيأ وأنا أبكي.. إنه أسوأ شعور قد يمر به إنسان.. أعتقد أن تلك الحادثة تحديدا هي التي جعلت أبي يقدِم على خطوة بيع البيت.. ولا أنسى المصيبة الأكبر التي أصابت حبي في مقتل.. حين علمت من أمي أن والد (يوسف) قد غير رقم هاتفهم.. مما يعني انقطاع الاتصال تماما بيننا!!!.

كم كنت أتمنى لو أخذوا علاقتنا تلك بجدية.. كم كنت أتمنى لو اتفق والدانا على أن أكون ل (يوسف) في المستقبل.. عندها كانت ستصبح الحياة أسهل بكثير.. لكنهم أصروا على أن علاقتنا هذه لن تتجاوز هوس المراهقة وقد يحدث بسببها ما لا يحمد عقباه على حد قولهم.. لهذا اختاروا الحل الأسهل بالنسبة لهم.. أن يبعدونا عن بعضنا بالقوة.

انتقلنا أخيرا إلى بيتنا الجديد في منطقة العديلية.. لنتأقلم على الحياة فيه تدريجيا.. وأصبح البيت القديم مجرد ذكرى لأفراد أسرتي.. لكن بالنسبة لي كان أكثر من ذلك بكثير.. فلا أنكر أنني -رغم كل ما حدث -ظللت أفكر ب (يوسف) كثيرا.. بل وفكرت أكثر من مرة بالاتصال به بالفعل.. لكن كيف؟!.. فأنا لا أعرف رقم هاتف بيته بعد أن قام والده بتغييره.. إذ لم يكن حتى مسجلا في البدالة.. وأعتقد أن أبي قد فعل الشيء ذاته مع رقم هاتف بيتنا الجديد.. لذا لم يكن هناك أي أمل في أن يعثر هو علي.. فعلا كانت الاتصالات مشكلة حقيقية في تلك الأيام قبل انتشار الهواتف النقالة.. لذا أعترف أنها كانت المرة الأولى التي أرفع فيها الراية البيضاء وأستسلم تماما لقدري وأنني على الأرجح لن ألتقي ب (يوسف) مرة أخرى.

عام 1989.. 4 سنوات أخرى مضت لم يتغير فيها شيء سوى أنني أنهيت دراستي الثانوية وقررت الاكتفاء بشهادتي هذه دون أي رغبة في الالتحاق بالجامعة.. حيث طلبت من أبي مساعدتي في العثور على وظيفة.. وقد وافق لحسن الحظ ولم يفرض علي استكمال دراستي.. فبدأت مساعيه واستمرت لأكثر من سنة في البحث عن وظيفة مناسبة لي في أحد وزارات الدولة دون أن ينجح.. والسبب هو صعوبة العثور على وظيفة آنذاك.. تماما كما هو الحال اليوم!!!.. فجلست في البيت طوال تلك الفترة أنتظر.. لتمر سنة أخرى عادية جدا لم يحدث فيها أي شيء يستحق الذكر سوى بعض التغييرات التي تحدث في كل عائلة.. أبرزها وفاة جدي رحمه الله.

ولن أتحدث أيضا عن توقف الحياة بأكملها في فترة الغزو وما صاحبها من أحداث وتغييرات خطيرة في مجتمعنا.. فهذا ليس له أي علاقة بقصة حبي التي كانت كجمرة هادئة تبقي قلبي دافئا وملتاعا بنفس الوقت.. ورغم كل من تقدموا للزواج مني بعد فترة الغزو.. إلا أنني ظللت أرفض وأختلق العذر تلو الآخر تاركة والديّ في حيرة.. وهما اللذان يظنان أنني نسيت (يوسف) فعليا هذه المرة.. والواقع أن (يوسف) لم يكن السبب الوحيد في عدم رغبتي بالزواج.. بل هو شعوري بأنه من الصعوبة أن أقع في حب الشخص الذي سيصبح زوجي بعد حبي القديم الذي استهلك كل قلبي فلم يعد هناك المزيد لأقدمه.. دعك من أنني لم أرغب بالزواج من شخص أرى (يوسف) دوما من خلاله!!!.. سيكون هذا ظلما لزوجي.. ففضلت الانتظار قليلا وتأجيل موضوع زواجي.

بعد مرور أكثر من سنة على تحرير (الكويت).. عثر لي أبي على عمل في إحدى الوزارات.. وظيفة

بسيطة أفضل ما فيها هو شعوري أنني بت مسؤولة عن نفسي وقد أصبح لي راتبا أصرفه كيفما شئت.. ولا أنسى التبعات المعتادة لأي وظيفة في العالم.. العثور على زميلات عمل وصديقات جدد بعيدا عن صداقات العائلة المعتادة.. فكنت أخرج معهن بين الحين والآخر وقتما سمح لي أبي بالخروج.. حياة بسيطة لها لذتها دون شك.. فلا مسؤوليات ولا ارتباطات من أي نوع.. ولا أنكر أن هذه الحياة قد أنستني قليلا حبي لـ (يوسف) والذي بت أتذكره فقط حين أستمع إلى الأغاني العاطفية التي تتحدث عن قصة حب لم يكتمل.. أو عن حب مات وانتهى بسبب العذّال!!!.

وفي أواخر عام 1993.. حدث تطور خطير ومخيف ومفاجئ أنهى حياتي بأكملها!!!.. من الغريب حقا أن يمر عليك يوم تظنه عاديا كباقي الأيام.. لكن تكتشف أنه اليوم الفاصل الذي سينقل حياتك بأكملها إلى بُعد آخر إن صح التعبير!!!.. هذا ما حدث في ذلك اليوم بعد انتهاء ساعات العمل في الوزارة.. حين كنت في طريقي إلى البيت وأنا أدندن بأغنية شهيرة تبث على الإذاعة.. قبل أن أفاجأ بسيارة تنحرف أمامي بتهور شديد.. فقمت - وكرد فعل طبيعي - بالانحراف بسيارتي بسرعة إلى جهة اليمين.. لتصطدم بي من الخلف حافلة لنقل الوقود!!!.. لا أذكر كيف جرى الحادث.. كل ما أتذكره هو أن سيارتي انقلبت أكثر من مرة.. ثم الحريق يشب من حولي.. والنيران تصل إلي بسرعة رهيبة وقد تبلّدت مشاعري تماما وتصلب جسدي فلم أحاول حتى الخروج من سيارتي وأنا أرى النيران تسير وكأنها شيطان يريد أن يحتويني ويلتف حولي!!!.

أجزاء من الثانية لتصل إلي النار فعليا.. حينها فقط بدأت أشعر وكأنني في الجحيم.. إذ رحت أتلوى وأصرخ بجنون ورعب شاعرة أنني أتنفس النار نفسها.. قبل أن يجرني أحدهم جرا إلى الخارج ويقوم بضربي بشيء ما.. كان يحاول إخماد النار التي اشتعلت بي باستخدام قميصه ربما.. وقد أخمدها بالفعل لكن ليس قبل أن يتفحم جسدي!!!.. الغريب أن الحروق كانت كافية لقتلي.. لكني لم أمت!!!.. معجزة لم يفهم أحد كيف حدثت.. هذا ما قاله الطبيب بنفسه فيما بعد.. ولم تكن تلك الحقيقة لتسعدني أبدا.. خاصة حين عرفت أن ثمن بقائي حية كان باهضا جدا!!!.

فقد تعرضت لحروق شديدة شوهت جسدي ووجهي تماما وحولتني إلى مسخ بشري مقزز المنظر.. وهذا بالمناسبة ما يجعلني أجلس معك الآن في الظلام بعيدا عن أنظارك.. صدقني يا (خالد) إذا قلت أنني أفعل ذلك لمصلحتك الشخصية حتى تتمكن من النوم حين تعود إلى بيتك.. وحتى لا تعيش الكوابيس التي ستثريها هيئتي الخارجية إذا سمحت لك برؤيتي!!!.

لا أعرف كيف أصف لك مشاعري حينها.. كل حياتي.. كل لحظاتي.. كل آلامي.. كل شيء انهار في لحظة واحدة.. إذ ظللت في غيبوبة أياما طويلة.. والخراطيم تدخل قصبتي الهوائية.. وعشرات الأقطاب الأخرى ملتصقة بصدري.. لقد كنت -ومنذ وفاة جدي -أخشى كثيرا اليوم الذي سيقف فيه أقاربي خارج الغرفة التي أحتضر فيها ويستعيدون ذكرياتهم معي.. تماما كما فعلنا نحن مع من ماتوا قبلنا.. ولم أتوقع أن أقترب كثيرا من هذا اليوم رغم أن عمري لم يتجاوز الـ 23 عاما آنذاك.. كنت عاجزة عن استيعاب أنني لن أتمكن من رؤية وجهي كما كان في السابق إلا من خلال الصور العائلية القديمة.

ولا أنسى أبدا لحظة استيقاظي بعد أيام من الغيبوبة والضمادات الكثيفة تلتف حول وجهي والطبيب ينظر إلي بألم وهو يقول كلماته السخيفة:

-الحالة صعبة جدا.. لكننا لن نفقد الأمل!!!.

طبعا معنى هذا الكلام بالنسبة لي هو أن أفقد كل أمل.. خاصة حين علمت بحجم التشوهات التي أصابتني وأن الأمل في علاجها معدوم تقريبا.. هذا لا يصدق أبدا.. حادث واحد لم يستغرق سوى بضع دقائق.. تتغير حياتك بأكملها بسببه.. لأتحول في ليلة وضحاها من فتاة جميلة رقيقة تحلم بالحب إلى كائن غريب منعزل لا يعيش إلا في الكهوف المظلمة.. وقد تبين هذا عندما قام الطبيب بفك الضمادات الكثيفة عني وأعطاني بعدها مرآة صغيرة كان ممسكا بها متوقعا أن يكون هذا أول ما سأطلبه!!!.

لقد أغمى علي حين رأيت وجهي في المرآة للمرة الأولى.. وربما لن تصدقني لو قلت أنني تقيأت أكثر من مرة حين رأيت جسدي كاملا أمام المرآة في الحمام.. لهذا أنا لا أملك أي مرايا في شقتي.. فلا يمكن أن توجد بشاعة كهذه.. إن منظري يصلح كثيرا لأمثل دور مخلوق فضائي في أحد الأفلام الأجنبية!!!.. أذكر أنني صرخت كثيرا.. وبكيت أكثر.. وطلبت من الطبيب أن يمنع الناس تماما من زيارتي.. حتى أفراد أسرتي أنفسهم.. ولن أحدثك عن مراسم العزاء التي أقامتها والدتي وبكاء أقاربي المستمر كي لا تشعر بالملل.. فهذه أمور مفروغ منها!!!.

شهور طويلة من العذاب والبكاء والعزلة والنحيب دون أن تكون هناك أي بوادر أمل رغم محاولات أفراد عائلتي للعثور على مستشفى في أي مكان في العالم يعالج حالتي.. لكن عمليات البحث فشلت تماما.. خاصة وأننا نتحدث عن عام 1993 حيث لم يكن للإنترنت وجود في (الكويت).. و.. عندما لا تجد حلا لمشكلتك.. فربما لأنها ليست مشكلة.. بل حقيقة مؤسفة يتحتم عليك تقبّلها!!!.. فقد ماتت حياتي وذكرياتي وبقي جسدي فقط.. حتى أنني قررت وضع قانون صارم لا أحيد عنه أبدا بعد أن ساءت حالتي النفسية كثيرا وأصبحت حاقدة ناقمة على المجتمع بأكمله.. إذ قررت الانعزال في غرفتي وعدم السماح لأحد إطلاقا أن يراني أو يزورني بعد خروجي من المستشفى وعودتي إلى البيت.. وحصلت بالطبع على تقاعد طبي أمن لي راتبا مدى الحياة دون عمل.. لقد شعرت أن هناك أوقاتا عليك أن تغلق فيها كتاب حياتك إلى الأبد وإن لم تَمُت بعد!!!.

فأصبحت أقضي أيامي - بعد خروجي من المستشفى - في غرفتي.. بين العزلة والاكتئاب.. والغرق التام في عالم الكتب والتلفزيون كمحاولة يائسة لنسيان ما حدث.. تخيل أنني لم أخرج من غرفتي أبدا ولم أسمح لأحد بدخولها رغم محاولات جميع أفراد الأسرة لإعادتي إلى الحياة الطبيعية.. لكن.. كيف يعود شخص غير طبيعي إلى عالم طبيعي؟!.. هذا مستحيل.. فيئس الجميع من مساعدتي.. وابتعدوا عني مع مرور الأيام.. لتستمر حياتي على هذا المنوال الكئيب لسنوات.. العالم بأكمله يتغير.. سوى فتاة منعزلة تجلس في غرفتها وترى أن الطريقة الوحيدة كي لا تصاب باليأس هي أن تتوقف عن الأمل أصلا.

ولا أنسى كيف كانت الخادمة تأتي لي بصينية طعامي وتتركها عند الباب.. فأخرج الصينية وأضعها في ذات المكان حال انتهائي من طعامي لتأتي هي وتأخذها.. إذ لم أسمح لها بتنظيف غرفتي وحمامي.. بل ظللت أفعل هذا بنفسي دون الاعتماد على أحد.. من المؤكد أن الخادمة علمت أن هناك شيئا مريبا في مظهري لا أريد أن يطلع عليه أحد بعد تعرضي للحادث.. لكن هذا لم يهمني كثيرا.

ظلت حياتي في غرفتي كما هي دون أي تغيير.. لكن بالمقابل حدثت تغييرات هائلة من حولي في السنوات التي تلت تلك الحادثة الشنيعة.. كان أولها زواج شقيقي عام 1995.. ثم وفاة أبي عام 1999 لتلحقه أمي عام 2004.. وربما لن تصدقني لو أخبرتك أنني لم أرَ والديّ أبدا منذ خروجي من

المستشفى واختياري لحياة العزلة في غرفتي إلى أن توفيا.. أعرف أنه أمر شنيع.. لكن.. لا أعتقد أن معايير الأخلاق في تلك الأمور تنطبق على الكائن الفضائي البشع الذي تحولت إليه!!!!.

وقد قبلت عرض شقيقي في عام 2005 ببيع بيت العائلة.. شرط ألا أنتقل للإقامة عنده في بيته رغم كل الخصوصية التي وعدني بتوفيرها لي من غرفة وخادمة.. إلخ.. إذ لم أكن أرغب أن أصبح عبئا على زوجته.. ولم أكن أريد أن يتفضل علي أحد.. فاقتنع أخيرا أن أنتقل للإقامة بمفردي في شقتي هذه منذ ذلك الحين وحتى الآن.. حيث حرص على زيارتي في البداية باستمرار.. فيطمئن علي من خلف الباب دون أن أسمح له للقائي وجها لوجه.. ثم قلّت تلك الزيارات وتباعدت تدريجيا.. لتتحول مع مرور الوقت إلى مكالمات هاتفية تراجعت بدورها مع مسؤولياته تجاه أسرته وأولاده ومع زحمة الحياة.. لكنه ظل يسحب لي راتبي شهريا ويأتيني به إلى شقتي.. وقد كان هذا أفضل بالنسبة لي.. إذ كنت بالفعل أريد الانفراد في حياتي والعيش في الظلام.. خاصة وأنني بدأت أتقبل واقعي وأحب حياتي رغم كآبتها.

لقد أصبحت مفردات عالمي في شقتي هذه لا تتجاوز الكتب والتلفزيون وتنظيف الشقة بنفسي وطلب المأكولات من المطاعم دون أن أسمح لعامل المطعم أن يراني.. فأفتح له الباب بصورة جزئية.. وتمتد يدي التي ترتدي قفازا إلى الخارج لتسلمه المال ولتستلم منه كيس الطعام.. قد تتساءل لماذا لا أرتدي العباءة والنقاب مثلا وأعيش حياة طبيعية فأخرج كيفما أشاء دون أن يعرف أحد شيئا عن هيئتي الخارجية؟!.. فهذا بالفعل يبدو أفضل كثيرا من تلك الحياة التي عزلتني تماما عن المجتمع؟!.. لكني أؤكد لك أنني فقدت تماما الرغبة في الخروج.. ولا أنكر أنني شعرت بشيء من التعالي على كل الأصحّاء في العالم.. وتشكلت عندي نوع من العنصرية المضادة.. إذا كان الناس يروني قبيحة ويخشون من منظري.. فأنا أراهم أقبح ولا أتشرف بالاحتكاك بهم.. هكذا بكل بساطة!!!.

كما تعلمت مع مرور الأيام أن أستخدم جهاز الكمبيوتر بمساعدة شقيقي الذي اشترى لي واحدا مع كامل ملحقاته بالإضافة إلى قرص مدمج تعليمي عن كيفية التعامل معه واستخدامه.. فقد كان شقيقي يشعر بشفقة حادة تجاهي وبدا مستعدا لتلبية كل طلباتي.. إذ لم يعد ذلك المراهق المتحمس لضرب كل من يحاول مغازلة شقيقته.

كان أجمل ما في وحدتي هذه هو الاستقرار النفسي رغم كل ما حدث لي.. فأنا لا أذكر متى كانت المرة الأخيرة التي جرح فيها أحدهم مشاعري.. والإنسان الذي لم تجرح مشاعره منذ سنوات طويلة.. إما أن يكون قويا جدا أو وحيدا جدا.. وقد كنت الاثنين معا!!!.. قوية رغم الجرح العميق في نفسي وهيئتي الخارجية.. وحيدة باختياري بعد أن اخترت العزلة الأبدية.. وقد أدركت حقيقة مهمة.. وهي أن الحياة لعبة.. والطريقة الوحيدة للفوز فيها هي ألا تلعبها أصلا!!!.

لم تتوقف الأمور عند هذا الحد أيضا.. بل حدث تغييرا جذريا جديدا ومفاجئا في حياتي.. فبعد حوالي 3 سنوات من انتقالي لهذه الشقة.. وبعد سنوات طويلة من الوحدة منذ تعرضي لذلك الحادث.. رن جرس هاتفي فجأة ذات يوم.. وهو أمر نادر جدا!!!.. وأكاد أجزم أنني لم أتلقّ أي اتصالات منذ سنوات طويلة سوى من شقيقي.. دعك من الاتصالات السخيفة التي تردني بين الحين والآخر من الشركات التي تقدم عروضا لمنتج ما.. فأنهرهم بشدة وأغلق الخط بوجه المتصل.. لكن.. هذا الاتصال تحديدا كان صادما بحق.. إذ ضغطت على زر استقبال المكالمة ووضعت السماعة على أذني.. لأسمع صوتا يسألني مباشرة دون أي مقدمات:

-(أحلام)؟ !!.. أنا.. أنا (يوسف)!!!.. المعذرة.. هل.. هل ضايقك اتصالي؟!.

خفق قلبي بقوة.. أنا لم أعرف أي (يوسف) في حياتي سواه!!!.. هل يعقل أن يكون هو المتصل؟!.. بعد أكثر من 20 عاماً تقريبا على لقائنا الأخير؟!.. لا يخفى عليك أن هذا التغيير الهائل في حياتي قد أنساني كل ما يتعلق ب. (يوسف) وذكرياتي معه.. وكأن تلك الذكريات عاشتها فتاة أخرى في زمن آخر!!!.. لكن هذا الاتصال أعاد لي كل شيء فجأة.. مكالماتنا الهاتفية المضطربة.. لقاءاتنا فوق سطح بيتنا.. لقائي به يوميا أثناء الذهاب إلى المدرسة.. سنوات الطفولة الجميلة معه.. ذكريات عديدة متضاربة مرت بذهني في جزء من الثانية.. ووجدت نفسي أبتسم للحظة وأنا أستعيدها.. قبل أن يستجمع الصوت شجاعته ويقول مرة أخرى بعد أن صمتّ تماما ولم أرد على سؤاله:

-أ.. أ.. (أحلام)؟ !!.. أنا.. أنا (يوسف).. المعذرة على اتصالي.. هل.. هل ضايقتك؟!!.

تجهم وجهي فجأة حين تذكرت أنني لن أعيش تلك الذكريات مرة أخرى.. فرددت عليه بعصبية لا مبرر لها حين قلت:

-(يوسف)؟!.. ماذا تريد؟ !!.. لماذا تتصل بي؟!!.

رد بصوت متوتر:

-لا أعلم.. لكنك.. لكنك طرأت على بالي فجأة.. فقررت الاتصال!!!.

فوجئت بهذا الرد السخيف المقتضب.. فأكملت بذات العصبية:

-يا سلام.. بهذه البساطة؟ !!.. وكيف عثرت على رقم هاتفي بعد كل هذه السنوات؟!!.

رد بحرج:

-ليس عسيرا العثور على رقم الهاتف النقال لأحد في هذا الزمن.. لقد انتابني فضول شديد لمعرفة أخبارك وكيف سارت حياتك بعد حوالي عقدين من الزمان.. أنت الحب الأول والأخير في حياتي يا (أحلام).. لم يكن من اليسير أبدا أن أنساك رغم فراقنا القسري.

لا أعرف كيف أصف مشاعري وأنا أسمع صوته.. ربما كانت مزيجا من الحنق والغضب والكراهية والسخط.. ولو كانت فرصتي مع (يوسف) في الماضي صعبة بسبب ابتعادنا القسري عن بعضنا كما يقول.. فإنها الآن معدومة!!!.

سألته بصوت مختنق وقد نسيت قسَمي بعد الحادث ألا أكون ضعيفة أمام أحد:

- لماذا؟ !!.. لماذا تتصل الآن بعد كل هذه السنوات؟!!!.. كنت أظن أنك نسيتني ولم تعد تتذكرني.

رد بسرعة وكأنه ينفي عن نفسه تهمة:

-التذكر يعني أنني أنساك أحيانا.. وأنا لم أنسَكِ أبدا.. بل أن رقم هاتفك ظل مسجلاً ومحفوظاً في هاتفي لفترة طويلة ومنذ أن عثرت عليه.. لكني ترددت كثيرا في الاتصال بك.. كنت أتساءل طوال الوقت إن كان يجب أن أتركك لحالك.. إن كان يجب أن أتركك مع زوجك وأولادك.. لكني في النهاية قررت الاتصال والاطمئنان عليك فحسب آملاً ألا يسبب ذلك أي حرج لك!!!.

يبدو.. يبدو أنه لا يعرف شيئا عن الحادث وتبعاته.. هذا واضح من كلامه.. فقلت وقد تحطم

قلبي تماما:

-أنا.. أنا لم أتزوج يا (يوسف).

وكأنني سمعته يشهق!!!.. وكأنني سمعت أنفاسه اللاهثة وهو يقول بانفعال:

-م.. م.. م.. ماذا؟ !!.. لم تتزوجي حتى الآن؟!!!.. لماذا؟ !!.. أنا لا أفهم.

لم أشأ إخباره أنني تحولت إلى كائن بشع أبعد ما يكون عن الفتاة الرقيقة التي عرفها وأحبها منذ سنوات.. لذا قلت باقتضاب وضيق واضحين:

-إنه النصيب فحسب.

ساد المكالمة صمت طويل قبل أن يقطعه (يوسف) ليسألني عن أفراد أسرتي.. فأخبرته عن وفاة والديّ وزواج شقيقي وأنني لم أعد أراه كثيرا الآن.. وأخبرته أيضا أنني أعيش وحيدة تماما دون أن أتطرق إطلاقا إلى الحادث.. لا أعرف كيف كان وقع كلامي عليه.. إذ لم يبد أي ردة فعل.. بل غمغم بكلمات لم أفهمها.. ثم أكد لي أنه مستعد تماما لمساعدتي إذا ما احتجت شيئا.. لكني أخبرته بشيء من التعالي أنني لا أحتاج مساعدة من أحد.. فأنهى المكالمة منكسرا حزينا وقد ظننت أنها المرة الأخيرة التي سأسمع فيها صوته.

لا أنكر أنني بكيت كثيرا ليلتها.. وفكرت بالاتصال به والاعتذار بسبب طريقتي الفظة في معاملته بعد أن اشتعلت المشاعر القديمة في قلبي مرة أخرى.. إنه الشاب الوحيد الذي عرفته في حياتي ولا يمكن أن أنساه بهذه البساطة.. لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة محاولة أن أطوي تلك الصفحة وأذكّر نفسي أن لا هدف هناك من التواصل معه أصلا.

في اليوم التالي من اتصاله.. وبعد أن غرقت تماما بذكريات الماضي.. رن جرس هاتفي النقال مرة أخرى.. وربما هي المرة الأولى منذ سنوات التي أتلقى فيها اتصالين بيومين متتاليين.. هذه هي الحقيقة!!!.. أجبت على الاتصال لأفاجأ ب.. ب.. (يوسف) مرة أخرى.. لقد اتصل ليقول باكيا وبصورة بدت غريبة لرجل يتجاوز عمره الـ 42 عاما:

-حبيبتي (أحلام)!!!.. أنا لم أتزوج أيضا ولم أفكر يوما بالزواج إلا منك!!!.. لقد بحثت عنك كثيرا بعد انتقالكم للبيت الجديد.. لكني لم أعرف مكان سكنك وكيفية الوصول إليك آنذاك.. وقد سافرت إلى الخارج لاستكمال دراستي بعد أن أنهيت المرحلة الثانوية بنجاح.. حيث عشت في (لندن) 5 سنوات.. لأعود أخيرا بعد التخرج وأنت لم تفارقي قلبي وعقلي يوما واحدا.. فأقسمت ألا أتزوج أبدا.. خاصة بعد أن ظننت أنك نسيتني على الأرجح وتزوجت وعشت حياتك.. حبيبتي.. لن أكون طفلا وأخبرك أنني لا أستطيع الحياة من دونك.. بل أستطيع.. لكني لا أريد ذلك.. أريد أن أكون معك دوما.. (أحلام).. أنا أحبك.. أحبك يا حبيبتي!!!.. كنت أريد أن أخبرك بذلك في الأمس بعد أن علمت أنك لم تتزوجي.. لكن طريقتك في الرد على مكالمتي جعلتني أرجئ الأمر قليلا.. إلا أنني لم أتمكن من الانتظار أكثر.. فقررت الاتصال مرة أخرى وليحدث ما يحدث.

قالها وأجهش في البكاء فجأة!!!.. بعد كل هذه السنوات تظل مخلصا بحبك لي يا (يوسف)؟ !!.. أنا لا أصدق!!!.. ارتجفت يدي الممسكة بالسماعة.. وانحدرت دمعة من عيني لم أتمكن من إيقافها.. لقد جئت متأخرا يا.. يا حبيبي!!!.. يوجد الآن عائق قوي يمنعني من أي ارتباط.. لم أعد تلك الفتاة التي تحمل صورتها في مخيلتك.. فالأمور تغيرت.. أنا مجرد كائن لا يمت بهيئته الخارجية للبشر.. كيف سأرتبط بك؟ !!.. كيف؟!!.

تدور تلك الخواطر في رأسي دون أن أرد.. ليكمل هو باكيا:

-أرجوك.. أرجوك يا حبيبتي اسمحي لي بلقائك.. أنا على استعداد أن ألتقي بك أينما شئت.. أريد أن أراك بعد كل هذه السنوات.. ارحمي قلبي المكدود.. لو كنت أعلم أنك لم تتزوجي حتى الآن.. لو كنت أعلم.. لو كنت أعلم.. لو كنت أعلم!!!.

ظل يرددها إلى أن خانه لسانه.. فراح يكمل بكاءه بطريقة أخرستني تماما.. يا إلهي.. كم هي قاسية حياتي.. كم هي صعبة.. لم يبتسم لي الحظ يوما سوى في طفولتي ومراهقتي حين كنت بجانبه.. وتحول هذا العسل إلى سم بعد رحيله.. كم أنا تعسة.. كم أنا تعسة!!!.

سكت تماما تأثرا بما قاله.. واستمرت التساؤلات في عقلي مرة أخرى وأنا أسمع بكاءه على الطرف الآخر.. هل أقبل بلقائه؟!.. وكيف سألتقي به؟!.. هل أنا أرغب بلقائه أصلا؟!.. نعم.. أرغب بذلك بشدة.. أريد أن أقابله ولو مرة واحدة.. سألتقي به في شقتي.. لكني لن أدعه يراني.. سأراه أنا فقط وأتحدث إليه.. سأجلس في بقعة مظلمة من شقتي تحجب وجهي عنه.. تماما كما أنا جالسة معك الآن يا (خالد).. على الأقل سأروي عطش عيني برؤيته بعد كل هذه السنوات.. و.. وافقت على لقائه في شقتي!!!.. وطلبت منه المجيء خلال ساعتين إن أراد.. فلم الانتظار أكثر؟!.

أدرك جيدا أنني برمجت حياتي على الوحدة.. لكني سأكسر تلك القاعدة مرة واحدة فقط.. وقد انتبهت للتو إلى حقيقة هامة.. وهي أنني أحطت حياتي بالجدران طوال تلك السنوات ليس لأعزل نفسي عن الناس.. بل لأرى من سيريد أن يكسر تلك الجدران ويصل إلي!!!.. و(يوسف) هو الوحيد الذي فعلها.. لا أعتقد أن أحدا أحبني كما أحبني هو.. إنه يستحق لقائي مرة واحدة وإن لم أسمح له برؤيتي.. حقا أن هناك أناس مقدرا عليهم أن يحبوا بعضهم البعض.. لكن ليس مقدرا لهم أن يبقوا معا!!!.

لا يمكنك أن تتصور لهفته يا (خالد) حين أخبرته بموافقتي.. بل أن المسكين أخذ عنواني بسرعة ثم ودعني وأغلق الخط مباشرة ليستعد للمجيء.. هكذا بكل بساطة وبعد كل هذه السنوات.. مكالمة مفاجئة.. ثم لقاء مفاجئ مع أول وآخر حب في حياتي.. كل هذا يتم خلال ساعات قليلة!!!.. أمر غريب بالفعل.

رحت أجهز صالة الشقة وأضع فيها شمعة عدلت موقعها أكثر من مرة لتتيح لي رؤية (يوسف) دون أن يراني هو.. أفعل هذا وكلمات تلك الأغنية الرائعة لـ (أم كلثوم) تتردد في ذهني:

أغداً ألقاك.. يا خوف فؤادي من غدٍ

يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعدِ

آه كم أخشى غدي هذا وأرجوه اقترابا

كنت أستدنيه لكن هِبْتُه لما أهابا

وأهلّت فرحة القرب به حين استجابا

هكذا أحتمل العمر نعيماً وعذابا

مهجة حرة وقلباً مسّه الشوق فذابا

دقات قلبي تتضارب وأنا أجلس في نفس البقعة المظلمة التي أجلس فيها الآن.. الساعة تقترب من الثامنة مساء.. كل ثانية تمر تعني قرب زيارته.. أترقب.. أترقب.. و(أم كلثوم) تشدو في ذهني

بصدق وإخلاص وكأن هناك جهاز تسجيل صغير مخبأ في رأسي.. قبل أن أسمع صوت جرس الباب أخيرا.. إنه هو دون شك.. انتفضت في مكاني.. ثم تمالكت نفسي سريعا وقلت بصوت مرتفع:

-تفضل يا (يوسف).. الباب مفتوح.

بالطبع.. فلا يمكن أن أذهب لأفتح له الباب.. سيتمكن حينها من رؤيتي.. قد تتساءل مرة أخرى يا (خالد).. لماذا لم أرتدِ النقاب مثلا وأقابله؟ !!.. لا أدري.. أنا أفضل الاختباء واعتدت عليه منذ سنوات.. كما أنه يمنحني شعورا بالقوة كوني سأرى (يوسف) دون أن يراني.. ثم.. شعرت.. شعرت بمقبض باب شقتي يفتح بهدوء شديد.. لأقول بصوت مسموع مرتبك تخنقه العبرات:

-المعذرة.. أعلم أن الشقة مظلمة.. لكن هذا شرطي الرئيسي للقائك.. ولا داعي أن تعرف السبب.

راح يمشي ببطء شديد في الممر المظلم مقتربا من الصالة وهو يقول:

-لا أفهم لماذا تفعلين ذلك يا حبيبتي!!!.

لا أنكر أن قلبي قد تمزق وأنا أسمعه يناديني بكلمة (حبيبتي) وهو على بعد أمتار قليلة مني.. لكني لم أرد عليه.. والسبب هو ذلك الصوت المجهول الذي أثار استغرابي.. صوت (طقطقة) خفيف مع وقع أقدامه التي تمشي على ممر شقتي المصنوع من السيراميك والذي يؤدي إلى الصالة.. ما هذا الصوت؟!.. تجمدت أنظاري على الممر منتظرة دخوله صالة الشقة.. ستكون هذه المرة الأولى التي أرى فيها (يوسف) بعد كل هذه السنوات.. إنه يقترب.. لكن.. ما مصدر صوت (الطقطقة) الغريب هذا؟!.. لحظات كاد أن ينفجر فيها ضغطي من شدة التوتر.. قبل أن.. قبل أن أمر بأكبر صدمة عرفتها في حياتي.. وربما تفوق صدمة الحادث الذي صنع مني مسخا آدميا!!!.

لقد رأيت (يوسف) أخيرا.. كان وسيما للغاية.. تماما كما عهدته.. مع مسحة رجولة ونضج صنعتهما السنوات الماضية.. وبعض الشيب الذي ملأ رأسه.. لكنه كان.. كان.. كان يرتدي نظارة سوداء ويمسك بعصا تنير له طريقه.. نعم.. لقد كان أعمى يا (خالد)!!!!.. صوت (الطقطقة) هذا لم يكن سوى صوت عصاته وهي تدق الأرض أثناء مشيه!!!.

لا يمكن أن تدرك مدى صدمتي.. كانت المرة الأولى منذ الحادث التي أخرج فيها من دائرة الظلام إلى النور.. لأقترب منه لا شعوريا وأنسى تماما بشاعة وجهي.. وأسأله بهمس مهيب وقلب ملتاع:

-هل.. هل فقدت بصرك؟!!.

أومأ برأسه حزنا وهو يقول:

-أعلم أنك لا تريدين الارتباط برجل أعمى يا حبيبتي.. لكن.. كنت أريد أن ألتقي بك رغم كل شيء.. كنت أريد سماع صوتك على الأقل قربا مني.. أن أشعر بأنفاسك.. أن.. أن....

لم يكمل عبارته.. بل رأيت العبرات تنزل من تحت نظارته.. عندها فقط لم أحتمل.. فهرعت لاحتضانه!!!.. نعم.. احتضنته بقوة.. التصقت به تماما لأول مرة منذ سنوات طويلة.. و.. أفرغت كل انفعالاتي.. فخلا المكان من كل صوت سوى نحيبي.. كنت أبكي بقهر.. بحب.. بخضوع.. وقد شعرت أن نيران الحب اشتعلت كما لم تشتعل من قبل.

ظللنا متعانقين لفترة من الزمن لم نتحدث فيها ولم نقل شيئا.. كل ما فعلناه هو البكاء والتحسر

على الماضي.. وعلى الأيام التي ذهبت ولن تعود.. قبل أن يدفعني برقة.. ويحاول أن يضع يديه على وجهي.. يريد أن يراني بطريقة العميان كما يبدو.. لكني أمسكت بيديه وأنا أقول بأسى:

-أرجوك.. أرجوك احترم رغبتي.. لا أريد أن يلمس أحد وجهي.. أرجوك!!!.

لم يسألني عن السبب.. ولم يقل شيئا.. بل احتضنني مرة أخرى وهو يهمس بكلمات المراهقة ذاتها.. الكلمات التي كان يهمس بها في أذني كلما التقى بي.. عندها تذكرت ما قلته له يوما في فترة المراهقة:

-أكره كثيرا أنك أطول مني.

فأجاب مبتسما:

-هذا أفضل.. فعندما أحتضنك.. ستسمعين دقات قلبي الذي ينبض بحبك.

كنت بالفعل أسمع دقات قلبه ورأسي على صدره.. إنها لحظات لا تنسى أبداً.. زادها روعة وسكونا ذلك الظلام الدامس في صالة الشقة سوى من ضوء الشمعة الطفيف الذي جعل الأجواء حميمة جداً شبيهة بالتي نعيشها الآن.

أمسكت بيده لأقوده إلى الكرسي حيث جلست بجانبه.. ورحنا نتحدث عن كل شيء.. الحب.. العاطفة.. الزمن وما فعله بنا.. فأخبرني عن حياته منذ افتراقنا وتخرجه من المرحلة الثانوية ومن ثم اختياره للسفر إلى (بريطانيا) لاستكمال دراسته ظنا منه أنه سينساني مع مرور الأيام.. لكنه تمسك بي بصورة أكبر.. وأخبرني كذلك عن مرض (الجلوكوما) ([16]) الذي أصابه وأفقده بصره بعد تخرجه بسنوات قليلة.. فعاش وحيدا بعد رحيل أبويه -رحمهما الله -وزواج شقيقيه اللذين لم أتحدث عنهما إطلاقاً كونهما كانا بعيدين تماما عن مجريات أحداث قصتي.

ثم جاءت ثورة التكنولوجيا والاتصالات التي ساعدته في البحث عني من خلال صديق له ساعده بدوره في العثور على رقم هاتفي.. لقد كان المسكين يريد الاطمئنان على حياتي فحسب.. فاتصل بي بمغامرة كبيرة حمقاء على حد قوله.. لكنه عندما علم بعدم زواجي حتى الآن.. تفجرت مشاعر الحب في قلبه ونسي خوفه من رفضي المؤكد له بسبب العمى.. فطلب لقائي.. وها هو الآن معي في شقتي.. بعيدين تماما عن العالم.. ولأول مرة منذ أكثر من عقدين من الزمان.. كان شعورا لذيذا لا يوصف أن أجلس بقربه.. وأن أتحدث معه بحرية دون أن يراني.. وهو ما لم أفعله مع أي مخلوق منذ سنوات طويلة.

وقد أخبرته بدوري بكل شيء عني منذ ابتعادنا القسري عن بعضنا.. أخبرته بالحادث وهو أهم حدث في حياتي منذ افتراقنا.. فصعق تماما وتوسل إلي أن أسمح له بلمس وجهي ليراني على طريقته.. إلا أنني رفضت تماما.. وأخبرته أن عليه أن يحترم رغبتي.. فاحترمها بالفعل ووعدني أنه لن يطلب مني ذلك مجددا!!!.

و.. لم نشعر بمرور الوقت إلا حين نظرت إلى الساعة ووجدتها تقترب من الثالثة فجرا.. نعم.. 7 ساعات كاملة تحدثنا فيها كثيرا عن حياتنا وعشقنا لبعضنا.. فتخلل الحديث بكاؤنا عدة مرات.. كم أحبه.. كم أحب حنانه.. كم أحب ذكرياتي معه.. لا أنسى حين قال بلهفة شديدة يشوبها الألم:

-كنت أزور بيتكم القديم قبل أن أفقد بصري.. فأرى الباب وأتذكر كيف كنت تخرجين منه لتأتي لمقابلتي واللعب معي في طفولتنا.. أتذكر كيف كنا نلتقي فوق السطح.. كل مكان حول هذه المنطقة يشع بذكراك.. كل مكان حول بيتك القديم يفتقدك!!!.. حبيبتي.. هل.. هل.. هل

تتزوجيني؟!!.

قالها فجأة قبل أن ينهض من مكانه وكأنه لا يحتمل الجلوس من شدة التوتر بعد طلبه هذا.. قالها وصدمني.. ما الذي سأقوله له؟ !!.. إنه يطلب مني الزواج رغم علمه بمأساتي؟!.. هذا لا يصدق.. لا يصدق.. بكيت بصوت مرتفع تأثرا بحنانه.. فجلس مرة أخرى ملتاعا واقترب مني ليحيطني بذراعيه وهو يقول:

-حبيبتي.. لا يوجد أي سبب لخوفك أو قلقك.. لقد وقف الجميع ضد حبنا في السابق.. لكنا نتحكم بمصائرنا الآن.. لدينا سنوات طويلة نعيشها معا.. سأكون عند قدميك.. وسأحرص دوما على إرضائك.. لقد أحببت (أحلام) الطفلة.. والمراهقة.. والناضجة.. وسأحب (أحلام) بعد الحادث أيضا.. فقلبك وعقلك وروحك لم يتغيروا.

قلت بأسى غير مستوعبة طلبه هذا:

-لقد تغير الزمن.. أنت لا تعرفني الآن!!!.

رد بحرارة:

-نعم أنا لا أعرفك.. لكني ولدت لأحبك.. إن مشاعر الحب التي أحملها لك تشبه البصمة.. لا يمكن أن تنطبق إلا على شخص واحد فقط.. أنت!!!.

نظرت إليه بعيني الممتلئتين بالدموع.. ثم.. ثم.. ابتسمت!!!.. ولا أبالغ لو قلت أنني شعرت بالألم بسبب ابتسامتي كونها حركت عضلات وجهي التي ظلت جامدة لسنوات طويلة.. نعم.. لقد وافقت على زواجي منه.. بل أن كل شيء تم بسرعة لا تصدق!!!.. إذ تحدثت مع شقيقي وأخبرته أن هناك عريسا تقدم لخطبتي.. وأن هذا العريس هو ابن جيراننا نفسه الذي أحببته منذ طفولتي.. بالطبع صعق تماما.. وتطلب الأمر بعض الوقت ليستوعب أن شقيقته ستتزوج رغم كل شيء.. ومن (يوسف) تحديدا!!!.. وصعق أكثر حين أخبرته أن (يوسف) فقد بصره منذ سنوات.. ويبدو أنه لم يجد بدا من الموافقة.. فعلى الأقل سأكون مع رجل ولن أعيش تلك الوحدة بعد الآن.. و.. خلال أسبوع واحد فقط تم عقد قراننا بحضور محدود للغاية لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة -من بينهم شقيقي-حيث اضطررت لارتداء النقاب والتخفي عن الأنظار.

وقد انتقل (يوسف) بعد ذلك للإقامة في شقتي -بناء على رغبتي-بعد أن باع بيت عائلته وحصل على نصيبه من الورث.. وها نحن الآن نعيش معا في هذه الشقة منعزلين تماما عن العالم وهمومه.. ونقضي وقتنا كله أمام شاشة التلفزيون فنشاهد الأفلام والبرامج.. ويجلس هو بجانبي ليسمع ما يدور فيها وأخبره ببعض التفاصيل التي لا يفهمها.. وأحيانا أخرى نقرأ.. أقرأ كتبي ويقرأ هو بطريقة (برايل) ([17]).. ولا أنسى كلمته ليلة زواجنا حين قال:

-سأحبك إلى الأبد يا حبيبتي.. كل يوم في هذا الأبد!!!.. الآن فقط أشعر بالسعادة لأنني أصبت بالعمى.. لأنك في قلبي ونظري.. مهما حدث لك.

إننا نعيش بطمأنينة وسكينة معا بعد أن عشق (يوسف) أيضا حياة الوحدة التي أعيشها وقرر أن يعيشها معي.. وهذا ليس بالأمر السيئ.. فقد كنا تائهين في النور.. لكنا وجدنا طريقنا في الظلام.. لأنك في الظلام فقط تستطيع أن ترى النجوم!!!.. إلا أننا بعد مرور سنتين على زواجنا.. وسنوات طويلة على عزلتي الاختيارية.. شعرت بالرغبة في التجديد.. وفكرت بوسيلة للالتقاء بأناس جدد.. ثم طرأت أنت في ذهني.. شخص مميز قرأت مذكراته وتأثرت بما عاشه.. ح^؟ ^وأحسست أنه

سيفهم قصتي جيدا أكثر من سواه.. لهذا طلبت منك أن تحضر يا (خالد).. وأنا سعيدة للغاية أنني أقنعتك بالحضور رغم طباعك القلقة المتشككة.. فأكرر شكري لك على حضورك.. وعلى الاستماع لقصتي.. أشكرك على كل شيء.. أشكرك للمرة الألف))

انتهت السيدة (أحلام) من قصتها.. فتنحنحت بعد صمتي الطويل وسألتها بتأثر شديد وأنا أمسح دمعة انحدرت من عيني لا شعوريا:

-أين هو زوجك الآن؟!!.

لم أرد.. لأن هناك شخصا آخر أجاب على هذا السؤال وبهدوء شديد:

-أنا موجود هنا يا (خالد).. لقد كنت أستمع إلى كل ما قالته زوجتي الحبيبة!!!!.

قالها لألتفت بجزع إلى مصدر الصوت.. نعم.. لقد كان (يوسف) يجلس في زاوية أخرى غير مرئية من الصالة!!!.. إذ ظل صامتا هادئا هناك طوال الوقت دون أن أعلم بوجوده.. تطلب الأمر لحظات قليلة لأستوعب المفاجأة.. قبل أن أرى رجلا أعمى على قدر من الوسامة ينهض من مكانه ويتجه إلي وهو يتحسس طريقه.. فنهضت بسرعة بدوري واتجهت ناحيته لأصافحه وأحتضنه بحرارة.. وكأننا أصدقاء لم نلتقِ منذ مدة طويلة!!!.. لقد كان تأثري بتلك القصة واضحا لهما.

ثم.. سألت (أحلام) بمرح:

-لماذا لم تخبريني أن (يوسف) معنا في الصالة منذ البداية؟!!.

ردت ضاحكة دون أرى وجهها:

-كنت أخشى أن ترفض زيارتي لو عرفت أنني أعيش مع رجل وإن كان زوجي.. فأنا أدرك جيدا إلى أي درجة أنت متشكك يا (خالد).. كما أنني لم أشأ أن أفسد عليك قصتي وفكرت بصنع مفاجأة صغيرة في نهايتها.

ابتسمت وأنا أقول:

-مفاجأة رائعة بالفعل يا (أحلام).. مفاجأة تنهي قصتك بطريقة جميلة.. الحب شعور جميل.. يشعرنا بالحياة والفلسفة العميقة لدى كلا منا عن نفسه وعن العالم بأكمله.. من المذهل حقا أنه بعد آلاف السنوات من اختراع اللغة كوسيلة تخاطب بين البشر.. لا توجد كلمات أستطيع أن أعبر فيها عن علاقتكما.. إن قصتك مع (يوسف) لم تكن قصة حب.. بل أسطورة.. أسطورة من أساطير الحب!!!.. هذه هي الحقيقة.

قلتها ليطلق الزوجان ضحكة هادئة.. فقال (يوسف) بفخر:

-أحيانا كنت أتساءل إذا كان الحب يستحق أن نقاتل من أجله.. لكن عندما أتذكر أنني أحب (أحلام).. أجد نفسي فجأة مستعدا للحرب!!!.

قالت (أحلام) بحنان:

-إنك إنسان رائع.. عشت معك أجمل أيام حياتي.. وسأعيش معك السنوات المتبقية منها.

ساد الصمت لفترة من الزمن وقد تأثرت كثيرا بكلامهما.. ثم رحنا نتحدث قرابة الساعة عن أمور مختلفة وفي ذات الأجواء الحميمة.. ألقيت نظرة عابرة على ساعتي.. لأجدها وقد تجاوزت منتصف الليل بقليل.. فشعرت أن علي الرحيل.. لأنهض من مكاني قائلا بتأثر:

-إنني سعيد جدا للقائي بكما.. صدقاني هذه ليلة هادئة جميلة لن أنساها أبداً.. لا أعرف كيف أشكركما على ثقتكما بي.

ضحكا وهما يقولان كلاما مماثلا يحوي الكثير من المجاملات والمدح لشخصي المتواضع.. فصافحت (يوسف) مرة أخرى وأنا أشكرهما على هذه الدعوة.. ثم نظرت إلى حيث مكان السيدة (أحلام) حيث اعتادت عيناي الظلام وبت أرى حدودها الخارجية وأنا أتبادل معها عبارات الوداع.. قبل أن أتجه إلى ممر الصالة.. وأخرج أخيرا من شقتهما ومن عالمهما بأكمله.. خرجت وتركت الزوجين منعزلين تماما كما ارتضيا لنفسيهما.. مدركاً أنني لن أراهما مرة أخرى على الأرجح.

لا أعرف لماذا شعرت بغصة في حلقي أثناء خروجي.. ربما لأنني كنت أحلم دوما أن أعيش قصة حب كهذه.. ربما لأنني تذكرت أن حبيبتي لن تعود أبدا.. لكني رغم كل شيء سأنتظر وإن كان انتظاري يائسا لا معنى له.. فأنا لا أملك سوى الانتظار.. وعزائي هو دراستي ومستقبلي الذي أحلم به كطبيب يحمل شهادة الدكتوراه ويحظى باحترام الجميع.. وحياتي الهادئة الرتيبة التي أحبها بوجود جدتي أطال الله في عمرها.. مدركا تماما أن حياتي مختلفة عن باقي الناس بسبب التجارب المذهلة التي أعيشها بين الحين والآخر.. والتي جعلتني أعيش في عالم آخر مظلم لا يعلم بوجوده أحد.. وفي تلك الأبعاد الخالدة.. الأبعاد المجهولة.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

لينك القنـاة – Link

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) تم ذكر سبب وفاتهما في الجزء الأول من (الأبعاد المجهولة).

[←2]

(2) يجب أن نذكر هنا أنه عادة ما تمر جثة الإنسان - التي لا يتم دفنها - بثلاثة مراحل.. المرحلة الأولى تحدث في الأسبوع الأول من الوفاة.. وهي مرحلة الانحلال الذاتي أو الهضم الذاتي.. حيث يتم تدمير خلايا الجسم من خلال الأنزيمات الهاضمة الموجودة فيه.. ونتيجة لذلك يتكون سائل بين طبقات الجلد مما يجعله يتقشر بسهولة.. وخلال هذه المرحلة أيضا يبدأ الذباب بوضع بيضه في فتحات الجسم: العينين والأنف والفم والأذن والجروح المفتوحة وغيرها.. وبعد فقس البيض تخرج اليرقات تحت الجلد وتبدأ في أكل الجثة.. أما المرحلة الثانية فهي الانتفاخ.. وتحدث في الأسبوع الثاني من الوفاة.. حيث تبدأ بكتيريا الأمعاء في تحطيم أنسجة الجسم وإنتاج الغازات التي تتجمع وتحدث انتفاخا واضحا في البطن.. وأحيانا في الفم والأعضاء التناسلية.. ويستمر انتفاخ الجثة وتجمع الغازات فيها حتى يتحلل الجسم بالقدر الكافي لخروج الغازات.. أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي التعفن.. وهي أطول مرحلة.. وجدير بالذكر أنه قد يصعب التعرف على ملامح الجثة بعد ثلاثة أسابيع من الوفاة نتيجة تحللها.. أما تحول الجثة بالكامل إلى هيكل عظمي فيتطلب ذلك بضع سنوات.

[←3]

(3) راجع الجزء الأول من (الأبعاد المجهولة) إلا أنه غير مرتبط إطلاقا بقصتنا هذه.

[←4]

(4) عندما نأتي على ذكر الاستنساخ.. فيجب أن نذكر أن أول حيوان تم استنساخه في العالم كان (قنفذ البحر) وذلك في عام 1895.. حين أخذ عالم الأحياء الألماني (هانز درايش) (Hans Driesch) خلية من (قنفذ البحر) وقام بحضانتها بنفسه دون صعوبة تذكر كون خلايا جنين (قنفذ البحر) كبيرة جدا ومن السهل متابعتها بالعين المجردة والتحكم بها.. ثم قام بتقسيم الخلية إلى قسمين بأساليب بدائية جدا قياسا للإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت.. فكبر كل قسم على حدة وتحول إلى (قنفذ البحر) كامل النمو!!.. وفي عام 1902 قام العالم الألماني (هانز سبيمان) (Hans Spemman) بتجربة غريبة أيضا حين استخدم شعرة من رأس ولده كسكين لتقسيم خلية إلى قسمين من خلايا حيوان (السالامندر) (salamander) البرمائي الشبيه بالسحلية.. وقد تمكن من حضانة القسمين ليصبحا كائنين متماثلين تماما ومكتملي النمو.. أما فكرة استنساخ البشر فقد تم التطرق لها بجدية في عام 1940.. حين أراد العلماء الألمان صنع عشرات النسخ من شخصية (هتلر) وقاموا بإجراء أبحاث جادة حول كيفية تحقيق ذلك.. لكن الأبحاث لم تستكمل مع سقوط الرايخ الثالث وانتصار الحلفاء وانتحار (هتلر).. ليبقى الاستنساخ قنبلة موقوتة غفل عنها العالم لعقود طويلة قبل أن تتفجر مرة أخرى في تسعينات القرن العشرين عندما أعلن العلماء أنهم قد توصلوا إلى استنساخ حيوان ثدي وهي النعجة (دوللي).. لتتبعها عمليات استنساخ ناجحة لحيوانات أخرى.. ليبدأ الحديث مرة أخرى عن استنساخ البشر.. لكن برزت بسبب ذلك عدد من القضايا والتساؤلات الشائكة.. أولها علاقة الكائن المستنسَخ بالكائن الأصلي.. هل هو توأم له.. أم ابن.. أم ماذا؟!.. قضية مربكة واجهت الكثير من الصعوبات والهجوم أيضا.. خاصة مع القوانين التي أقرتها بعض الدول والتي تحظر استنساخ البشر.. عندها وجه العلماء أنظارهم إلى جانب آخر من الاستنساخ.. فلماذا لا يستنسخون ما يحتاج إليه الإنسان من الأعضاء البشرية فحسب؟!.. بل أن بعض العلماء تحدثوا عن بنك للأعضاء البشرية في المستقبل.. ليصبح لدى كل إنسان صندوق في ذلك البنك يحوي قلباً وكبداً و.. إلخ من الأعضاء البشرية البديلة.. تماما كما يكون لديك إطار احتياطي في السيارة!!!.. خاصة وأن حاجة الإنسان للأعضاء البشرية ملحة جدا. وفي البداية نجحت جهودهم باستنساخ الأكباد.. وبسرعة انتقلوا إلى الخطوة التالية والأهم!!!.. القلوب.. ففي عالم الأعضاء البشرية تعتبر القلوب هي السلع الأكثر طلباً والأكثر ندرة.. والشخص الذي يحتاج إلى عملية زرع قلب.. قد يضطر للانتظار سنوات من الألم والمرض حتى يتوفر قلب بديل.. أما مع استنساخ الأعضاء البشرية فالأمر لن يدوم طويلاً.. خلية واحدة من قلبه ستكفي لاستنساخ قلب جديد سيتعرفه الجسد ويتعامل معه دون مضايقات أو عقبات لأنه بالفعل جزء منه.. لكن تجارب استنساخ القلوب لم تنجح بعد.. كون القلب عضو أكثر تعقيدا بكثير من الكبد.. أما بخصوص استنساخ النبات.. فأول من وضع قواعده هو الباحث النمساوي (جريجور مندل) (Gregor Mendel) والذي يُطلق عليه لقب (الأب الشرعي لعلم الجينات).. فقد كان يزرع زهور البازلاء ويراقبها ويسعى لتهجينها.. والتهجين يعني التدخل البشري في إنتاج الحيوانات أو النباتات لضمان الحصول على الصفات المرغوب فيها لدى الأجيال القادمة.. أو مزج السلالات ومتابعة نتائجها.. وقد نشر (جريجور مندل) أبحاثه بهذا الشأن عام 1866.. لتنطلق بعدها بعقود من الزمن

المزيد من الأبحاث الجادة إلى أن توصل العلماء عام 1980 إلى استنساخ أول نبات.. لتتبعه نباتات أخرى وأخرى.. وهناك العديد من المواقع العلمية في شبكة الانترنت التي ستمنحك قائمة كاملة لكل النباتات التي تم استنساخها.

[←5]

(5) (توماس إديسون) (1847-1931) مخترع أمريكي شهير جدا اخترع العديد من الأجهزة التي كان لها أثر كبير على البشرية.. أهمها المصباح الكهربائي.. والفونوغراف (أول جهاز تسجيل صوتي في العالم) وآلة التصوير السينمائي.. وقد وضع (توماس إديسون) نظام توليد القوى الكهربائية وتوزيعها على المنازل والشركات والمصانع مما أدى إلى تطور جوهري في عالم الصناعات الحديثة.. وتقع محطة توليد الطاقة الأولى التي أنشأها في شارع بيرل في (مانهاتن) بولاية (نيويورك).. علما بأن (توماس إديسون) يعد من أكثر المخترعين انتاجا في التاريخ حيث يمتلك حوالي 1093 براءة اختراع تحمل اسمه.

[←6]

(6) الخلايا الجذعية (Stem Cells) هي خلايا مكتملة النمو ولكنها غير متخصصة لأداء وظيفة معينة.. إلا أن لها قدرة فائقة على التحول لأي نوع من الخلايا الأخرى.. مثل خلايا الكبد أو المخ أو العظام أو حتى القلب.. وهذه الميزة المذهلة جعلت العلماء والأطباء يهتمون بالخلايا الجذعية ويفكرون في استخدامها لعلاج العديد من الأمراض المزمنة التي لا يوجد لها علاج إلى الآن.. بل أنها تستخدم فعليا في الوقت الحالي لكن على نطاق محدود لإصلاح وترميم الاعضاء التالفة في جسم الإنسان نتيجة إصابة أو مرض معين.. إلا أن هناك دراسات كثيرة تؤكد أنه سيتم استخدام تلك الخلايا بصورة أكبر في المستقبل لاستنساخ أعضاء بشرية كاملة.

[←7]

(7) في العام الأخير من القرن العشرين وفي نهاية ولايته.. خرج الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) ليعلن للعالم كله ما أطلق عليه اسم (أعظم كشوف القرن).. وكان بهذا يعنى خريطة (الجينوم البشري).. الخريطة التفصيلية للجينات والموروثات البشرية التي تمنح الانسان كل ما يتمتع به من صفات وسمات.. كهيئته.. ولون عينيه.. ودرجة ذكائه.. وحالته الصحية.. بل وحتى عيوبة الوراثية.. ولقد كان (كلينتون) على حق تماماً فيما وصف به هذا الكشف المدهش.. فهذا يعني أن العلم قد اكتشف الخيط المؤدي لتحديد كل تفاصيل وسمات المولود قبل أن تحمل به والدته.. بل ويرجح العلماء أنه في المستقبل القريب وخلال النصف الثاني من هذا القرن قد تتغير خريطة البشرية بالكامل.. كأن يطلب أبوين من (الصين) مثلاً أن يكون طفلهما أشقر الشعر طويل القامة دقيق الملامح.. سيكون أمراً كهذا ممكناً جداً حينها.. كل هذا من خلال العبث بجينات الأبوين قبل الإنجاب لتحقيق طلبهما.

[←8]

(8) من المهم جدا أن نذكر أن هناك ثلاث مصطلحات يستخدمها الناس بكثرة ويظنونها شيئا واحدا.. وهي العقل.. والمخ.. والدماغ.. رغم أن الفارق بين تلك المصطلحات شاسع للغاية.. فالعقل هو في الواقع كلمة معنوية وليست مادية.. ويقصد بها القدرة على التفكير والتى يتميز بها الإنسان عن باقي الكائنات الحية.. أما الدماغ فهو جسم مادي يمثل المحتوى الموجود داخل جمجمة الإنسان حيث يشمل المخيخ (وهو الذي يهتم بشكل أساسي بالتوازن وتنظيم الوظائف الحركية) وجذع الدماغ (الذي يتحكم في الوظائف غير الإرادية كالتنفس وتنظيم الضغط ودقات القلب).. و.. المخ.. أي أن المخ هو مجرد جزء صغير من الدماغ.. ويكون دور المخ متعلق بجمع المعلومات وتحليلها.. كما أنه مسؤول أيضا عن اللغة.

[←9]

(9) الهلوسة هي الإحساس أثناء حالة اليقظة بشيء غير موجود.. وتتنوّع أشكال الهلوسة ما بين بصرية وسمعية وشمية وذوقية ولمسية.. أما أسبابها فهي كثيرة.. منها حين يتم حرمان المرأ من النوم لفترة طويلة.. أو بسبب بعض الاضطرابات العقلية.. أو أن تحدث أحيانا كأحد الأعراض الجانبية لبعض الأدوية

[←10]

(10) (جون ناش) (John Nash) وهو عالم رياضيات شهير ظهرت عليه أعراض الهلوسة عام 1958.. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون عبقريا فذا.. بل وحصل بسبب عبقريته ونظرياته الرياضية على جائزة نوبل.. وقد تم إنتاج فيلم عن قصة حياته عام 2001 وكان بعنوان (عقل جميل) (A Beautiful Mind).. حيث جسد فيه الممثل العالمي (راسل كرو) شخصية (جون ناش).. وحصد الفيلم حينها العديد من الجوائز.. منها أربع جوائز أوسكار.

[←11]

(11) حقيقة بالطبع.

[←12]

(12) التخلف العقلي (Mental Retardation) هو حالة من عدم تكامل نمو خلايا المخ أو توقف نمو أنسجته منذ الولادة أو في السنوات الأولى من الطفولة لأسباب وراثية في الغالب.. أو بسبب الإصابات التي قد تحدث للطفل أثناء الولادة.. مما يتسبب بخفض واضح في درجة ذكائه مقارنة بمعدل الذكاء العام للأطفال.. مع عجز كبير في قابليته على التكيف مع بيئته.. وهناك أكثر من فئة للتخلف العقلي.. أسوئها هو التخلف العقلي العميق الذي يجعل المريض يتصرف كالطفل الرضيع.. فيحتاج إلى رعاية وملاحظة مستمرة.. وغالباً ما يرتبط هذا النوع من التخلف العقلي بالإعاقات البدنية.. وهناك أيضا التخلف العقلي الشديد حيث تظهر على المريض أعراض التأخر في النمو منذ الطفولة.. مع ظهور بعض الاضطرابات العصبية أو الصرع وبطء الكلام.. وعادةً ما تعاني هذه الفئة من ضعف التوافق العضلي والإعاقة البدنية وعدم القدرة على الاستجابة الانفعالية للمواقف المختلفة.. ومن الممكن تدريب هذه الفئة على كيفية قضاء الحاجة والملبس وتناول الطعام.. وهناك أيضا التخلف العقلي المتوسط ويكون المصاب به قابلاً للتدريب على الأعمال البسيطة ولديه القدرة على الكلام.. وأخيرا هناك التخلف العقلي البسيط.. وتكون هذه الفئة عادة قابلة للتعليم في المدارس وتعلم المهارات الأساسية والاعتماد على النفس في الكثير من الأمور الحياتية.

[←13]

(13) مصطلح (الثقوب السوداء) هو مصطلح حديث نسبياً أول من استخدمه هو الفلكي الأمريكي (جون هويلر) عام 1969 ليصف به عملية موت النجم.. فجميع النجوم تولد وتموت.. والثقوب السوداء هي ما يخلفه النجم بعد انفجاره وموته.. ولنفهم طبيعة الثقوب السوداء جيدا علينا أولا أن نفهم ما يحدث للنجم حين يستنفد وقوده الهيدروجيني.. إذ تنفجر مادته وتنضغط إلى الداخل وليس إلى الخارج كما يحدث في أي انفجار آخر في العالم.. لذا فإن الثقب الأسود هو جسم متناه في الصغر ويحمل كتلة نجم كامل.. مما يمنحه جاذبية هائلة تبتلع حتى الضوء نفسه وبشراهة ليس لها مثيل.. مما يجعل الثقب يبدو شديد الظلام والعتمة.. ولو أردت أن تفهم فكرة الثقوب السوداء أكثر وأكثر.. راقب مصفاة حوض المطبخ.. فلو أنك ملأت الحوض عن آخره بالماء.. ثم سحبت سدادة المصفاة فستراها تبتلع المياه في سرعة وقوة.. هذا بالضبط ما يفعله الثقب الأسود بما حوله بافتراض وجود مصدر دائم للمياه يغذى الحوض وجهاز شفط قوى في قلب المصفاة.. وجدير بالذكر أن قوانين الطبيعة تتوقف عن العمل في الثقوب السوداء.. فلو شاهدت رائد فضاء يقفز جدلا في ثقب أسود في وقت تشير فيه ساعة يده إلى 11 مساء مثلا.. فإن كل ثانية في ساعة يده ستأخذ وقتا أطول وأطول إلى أن تتوقف الثواني إلى الأبد، لكنه لن يلاحظ شيء في بادئ الأمر ولن يشعر بمرور الزمن.. وبعد حوالي أسبوع - من قياسنا للزمن - سيبدأ يشعر بالضغط وأن جسده يتمدد كالمكرونة إلى أن يصبح هشاً ثم ينسحق وينضغط ليموت أخيرا.. علما بأن عدد الثقوب السوداء الموجودة في الكون أكبر بكثير من عدد النجوم المرئية.. وقد يسأل البعض: كيف نرى الثقوب السوداء إن كانت مظلمة معتمة بهذه الصورة؟!.. لقد أجاب على هذا السؤال أحد علماء الفلك بطريقة ذكية جدا حين قال: ((هل ذهبتم إلى حفل زفاف من قبل؟!.. هل رأيتم العريس ببدلته السوداء وهو يمسك بيد العروس بفستانها الأبيض ويرقص معها في وسط القاعة؟!.. تخيلوا أن نقوم بتخفيض قوة الإضاءة في القاعة لتصبح خافتة للغاية.. عندها كل ما سيمكننا رؤيته هو العروس فقط بسبب فستانها الأبيض اللامع.. حسنا.. العروس هي النجم العادي والرجل هو الثقب الأسود.. فلا يمكنك أن ترى الثقب الأسود كما أنك لا تستطيع أن ترى العريس في الحفلة.. لكن العروس - ومن طريقة رقصتها - تعطيك دليلا واضحا أن هناك شخصا آخر يتحرك معها ويدور في فلكها.. تماما كما يحدث في حركة النجوم التي تعطينا صورة واضحة عن مكان الثقوب السوداء)).

[←14]

(14) كل ما هو مذكور حقيقي تماما.. علما بأن تلك التجربة مزعجة للغاية لم تحتملها 19 من العينات البشرية التي خضعت لها.. حيث عانى معظمهم من الهلوسات والأوهام كما هو مذكور في القصة.. وقد تحدثت مجلة علمية متخصصة في الأمراض العصبية والعقلية أن تلك الهلوسات سببها عدم قدرة المخ على ترجمة ما يشعر به الإنسان بعد أن تزال منه كل حواسه.. وقد قامت بعض الأجهزة الأمنية في أوروبا كـ (الجيش الإيرلندي الشمالي) باستخدام هذا الصندوق بالفعل كوسيلة للضغط على المتهمين للاعتراف بما لديهم من معلومات.. لكن المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان أصدرت بيانا تمنع فيه استخدام تلك الطريقة كونها غير إنسانية وهي بمثابة عملية تعذيب لا تقبلها القوانين والأعراف.. وجدير بالذكر أن هناك تجربة شبيهة قام بها مجموعة من العلماء في ولاية (مينيسوتا) الأمريكية.. حين تمكنوا من صنع أكثر غرف العالم هدوءاً على الإطلاق والتي تمتص جدرانها جميع الأصوات.. بل وتمتص الصدى أيضا.. حيث يصل مستوى الصوت في تلك الغرفة إلى (سالب 9 ديسيبل) وهي وحدة قياس الصوت.. في حين يصل الهدوء في الغرف العادية إلى (30 ديسيبل)!!!.. وقد حصلت الغرفة على لقب (أكثر غرف العالم هدوءاً) في موسوعة جينيس للأرقام القياسية.. حيث تبين أن من يجلس فيها سيتمكن من سماع دقات قلبه بوضوح شديد جدا.. وسيسمع أيضا حركة دوران الدم في الجسم وتقلصات المعدة وصوت عمل الرئتين.. كما تبين أيضا أن أقصى فترة زمنية يستطيع الإنسان تحملها في تلك الغرفة هي 45 دقيقة فقط.. وبعد ذلك سيصاب بحالة من الهذيان ومن ثم الجنون.. ليدرك العلماء أن الإنسان - ولأسباب غير مؤكدة حتى الآن - لا يحتمل هذه الدرجة العالية من الهدوء.. وقد كان من المفترض أن تستخدم هذه الغرفة من قبل الشركات والمصانع لقياس مدى الضجيج الذي تنتجه آلاتهم.. كما استخدمت الغرفة أيضا من قبل وكالة (ناسا) لأبحاث الفضاء.. وذلك لاختبار قدرات رواد الفضاء ومعرفة كم من الوقت يمكنهم الصمود في الفضاء قبل أن يصابوا بالهلوسة والهذيان.

[←15]

(15) نوع حقيقي من أنواع الفوبيا.. واسمه العلمي (Athazagoraphobia)

[←16]

(16) (الجلوكوما) (Glaucoma) أو (الماء الأزرق) هو تلف يصيب أنسجة العصب البصري نتيجة ارتفاع الضغط في العين مما يؤدي الى تكوين بقع عمياء داخل العين تفقدها القدرة على الإبصار إلى الأبد إذا لم يتم تدارك المرض وعلاجه مبكرا.. وفي الحقيقة فإن تسمية المرض ب(الماء الأزرق) هو خطأ شائع.. إذ لا توجد مياه زرقاء بداخل العين أصلا.. ولكن أتت هذه التسمية من مفهوم كلمة (جلوكوما) عند الاغريق والتي تعني (الشلالات الزرقاء).. لأن المريض يشاهد هالات زرقاء حول مصدر الضوء فيشعر أن بداخل العينين مياه زرقاء.. ويصيب مرض (الجلوكوما) الكبار والصغار على حد سواء لكن هناك أناساً معرضون أكثر من غيرهم للإصابة به لأسباب وراثية في الغالب.

[←17]

(17) طريقة (برايل) هي نظام كتابة أبجدي يجعل الحروف رموزا بارزة على الورق.. حيث كان بمثابة الثورة في عالم المكفوفين بعد أن سد النقص الهائل الذي كان يعانيه نظامهم التعليمي.. وقد اخترع نظام الكتابة هذا الفرنسي (لويس برايل) عام 1839 حين شعر بمعاناة المكفوفين لسنوات طويلة بعد أن فقد بصره عام 1812 وهو في سن الثالثة.. علما بأن هناك وسائل أخرى تم ابتكارها لتعليم القراءة للمكفوفين.. إلا أن سهولة طريقة (برايل) وبساطتها أدت إلى اندثار جميع الطرق الأخرى.